سموتَ إلى العليا بغير مشقّـة فنلتَ ذَراها لا ذليلا ولا وَغْلا[1]

ونظر إليه معاوية يوماً يتكلّم معه ، فأتبعه بصره ، فقال متمثّلاً :

إذا قال لم يترك مقالاً لقائـلٍ مصيب ولم يثن اللّسان على هُجْرِ
يصرِّف بالقول اللّسانَ إذا انتحى وينظر فى أعطافه نظرَ الصَّقْرِ

وروى أن طائراً أبيض خرج من قبره ، فتأوّلوه عِلمَه خرج إلى الناس .

وقيل : دخل قبرَه طائر أبيض ، فقيل : هو بصره .

وقال أبو الزبير : مات ابن عباس رضى الله عنهما بالطائف ، فجاء طائر أبيض فدخل فى نعشه حين حُمِل ، فما رُئى خارجاً منه .

وفضائله كثيرة مشهورة ، فلنقف منها على هذا القدر .

[ذكر إياس القاضى]

وأما إياس ، فهو أبو وائلة بن معاوية بن قرة بن إياس بن هلال بن رباب المزنىّ ، قاضى البصرة . وسبب قضائه أنّ عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كتب إلى عدىّ بن أرطاة عامله على البصرة ؛ أن اجمع إياس بن معاوية المزنىّ والقاسم ابن ربيعة الحارثىّ ، فولِّ القضاء أنفذَهما وأفقههما . فجمع بينهما ، فقال كلّ واحد : إنّ صاحبَه أنفذ وأفقه ، فقال له إياس : سلْ عنّى وعن القاسم فقيهَىِ المصر : الحَسَن وابن سيرين ـ وكان القاسم يأتيهما وإياس لا يأتيهما ـ فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به . فقال القاسم : لا تسأل عنى ولا عنه ؛ فوالله الذى لا إله إلا هو ؛ إن إياسًا لأفقهُ منّى ، فإن كنتُ كاذباً فما عليك إلا ألّا تولِّيَنى

(١) الوغل من الرجال : الضعيف الساقط .

وأنا كاذب، وإن كنت صادقاً فينبغى لك أن تقبل قولى. فقال له إياس: إنك جئتَ برجل، فوقفتَه على شفير جهنم، فنجّى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها، وينجو ممايخاف، فقال له عدىّ: أما إنك إذ فهمتَها فأنت لها؛ فاستقضاه.

وقال إياس رحمه الله: أرسل إلىّ ابنُ هَبيرة فأتيته، فسألنى فسكتُّ، فلمّاأطلتُ قال: هيه!قلت: سلْ عمّا بدا لك، قال: أتقرأ القرآن؟قلت: نعم، قال: أتفرض الفرائض؟ قلت: نعم، قال: أتعرف من أيام العرب شيئاً؟ قلت: نعم، قال: أتعرف من أيام العجم شيئاً؟ قلت: أنا بها أعرف، قال: إنى أريد أن أستعينَ بك على عملى، قلت: إن فىّ خصالاً ثلاثاً لا أصلح معها للعمل، قال: ما هى؟ قلت: أنا دميم كما ترى، وأنا عَيِىّ، وأنا حديد، قال: أمّا دمامتك فإنى لا أريد أن أحاسن بك الناس، وأما العِىّ فإنى أراك تُعْرِب عن نفسك، وأما الحِدّة فإن السوط يقوِّمك، قم. فولانى القضاء، وأعطانى عشرة آلاف درهم، فهى أول مالٍ تموَّلتُه.

ودخل عليه عدىّ بن أرطاة فى مجلس القضاء ـ وعدىّ أمير البصرة، وكان أعرابىَّ الطبع ـ فقال: يا هناه، أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط، قال: فاسمع منى، قال: للاستماع جلست، قال: إنى تزوّجت امرأة، قال: بالرَّفاء والبنين، قال: وشرطتُ لأهلها ألاّ أخرجَها من بينهم، قال: أوفِ لهم بالشرط، قال: فأنا أريد الخروج، قال: فى حفظ الله، قال: فاقض بيننا، قال: قد فعلت، قال: فبمَ تحكم؟ قال: بألّا تخرجها، قال: بشهادة مَنْ؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك.

وأول ما ظهر من ذكائه، أنه دخل دمشق، وهو غلام، فتحاكم مع شيخ عند قاضيها، فصال إياس بحِدّته على الشيخ، فقال له القاضى: إنه شيخ كبير، فخفِّض كلامَك، فقال له إياس: الحقّ أكبرُ منه، فقال له القاضى:

أسكت ، فقال : ومَنْ ينطق بحجَّتى ؟ فقال له القاضى : ما أراك تقول حقًّا ، فقال إياس : لا إله إلا الله ، أحقٌّ هذا أم باطل ؟ فدخل القاضى من فوره إلى عبد الملك بن مروان ، فأعلمه بما رأى من ذكائه ، فقال له عبد الملك : اخرج فاحكم بينهما ، وأخرجْه الآن من دمشق إلى بلاده لئلاّ يُفسد على أهل الشام .

ولما دخل عبد الملك البصرة رأى إياساً وهوصبىّ ، وخلْفه أربعة من القرّاء أصحاب الطيالسة ، وإياس يقدُمهم ، فقال عبد الملك : أُفٍّ لهذه العثانين ؛ أما فيهم شيخٌ يقدُمهم غير هذا الحدَث ! ثمّ التفتَ إليه ، وقال : كم سنُّك ؟ فقال : سنِّى ـ أطال الله بقاء الأمير ـ سنُّ أُسامة بن زيد بن حارثة حين ولاّه رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً فيهم أبو بكر وعمر ؛ فقال : تقدَّم بارك الله فيك ، وكان سنُّه سبع عشرة سنة .

وأمّا ذكاؤه وفِراسته ، فقد ألَّف فى ذلك المدائنىّ كتاباً سمَّاه كتاب «زكَن إياس» ، والزَّكن : التشبيه ، يقال : زَكَّنَ عليهم وزكَّمَ : شبَّه وخيَّل ، وقيل : الزَّكن : الظنّ والتفرُّس . ومن زكنِه أنه اختصم إليه رجلان فى قطيفتين : حمراء وخضراء ، فقال أحدهما : دخلت الحوضَ لأغتسل ووضعت قطيفتى ، ثم دخل واغتسل ، فخرج قبلى ، وأخذ قطيفتى ، فتبعته ، فزعم أنها قطيفته ، فقال : ألك بيِّنة ؟ قال : لا ، قال : ائتونى بمُشط ، فأُتِىَ به ، فسرَّح رأس هذا ، ثم هذا ، فخرج من رأس أحدهما صوف أحمر ، ومن رأس الآخر أخضر ، فقضى بالأخضر لصاحب الأخضر ، وبالأحمر لصاحب الأحمر .

وأتى المدينةَ فصلّى فى مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، فزكنه أهلُه حتى صاروا فرقتين : فرقة تزعم أنه معلم ، وأخرى تزعم أنه قاضٍ ، ثم وجّهوا إليه رجلا ، فأخبره خبرَهم ، فقال : أصحاب الذين ذكروا أنى قاضٍ ، ورويداً أخبرْك عن القوم ؛ أمّا الذى مَنْ صفته كذا فهو كذا ، وأما الذى يليه فهو كذا ، وأما ذاك الشيخ فإنه نجار ، فقال الرجل : فى كلِّهم والله أصبت إلاّ فى الشيخ ،

فإنه من قريش ، فقال إياس : وإن كان من قريش ! فقام الرّجل إلى أصحابه ، فقال : قد جئتكم من عند أعجب النّاس ، والله إنْ منكم من أحدٍ إلاّ أخبرَني بصناعته إلاّ هذا فزعم أنه نجّار ، فقال : صدق والله ؛ إني لأنجُر عيدان جواري - يعني عود المزمار .

ونظر إلى ثلاث نسوة فزعن من شيء ، فقال : هذه حامل ، وهذه مرضع ، وهذه بِكْر ، فسُئِلْن فوُجِدْن كذلك ، فسئل من أين لك علم ذلك ؟ فقال : لمّا فَزِعن وضعت كلّ واحدة منهنّ يدها على أهمّ المواضع لها ، فوضعت المرضع على ثديها ، والحامل على بطنها ، والبِكْر على فَرْجها .

وسمع نُباح كلب لم يره ، فقال : هذا نُباح كلب مربوط على شفير بئر ، فنُظِر فكان كما قال ، فقيل له في ذلك ، فقال : سمعت عند نُباحه دويًّا ، ثم سمعت بعده صدًى يجيبه ، فعلمت أنه عند بئر .

ومن فِراسته أنه رأى أثر اعتلاف بعيرٍ ، فقال : هذا بعير أعور ، فنظروا فكان كما قال ، فقيل له في ذلك ، فقال : لأنّ وجدت اعتلافه من جهةٍ واحدةٍ .

ولما صار ذكاؤه يضرب به المثل ، كما يُضرب بجود حاتم وحلْم الأحنف وشجاعة عمرو بن معديكرب ، نظمهم حبيب في بيت جمع فضلَهم المتفرّق للعباس ابن المأمون ، فقال :

إقدامُ عمرٍو في سماحة حاتمٍ في حِلْم أحنفَ في ذكاء إياس[1]

وتُوُفِّيَ سنة ثنتين وعشرين ومائة . وأخباره كثيرة ، وفيما أوردناه كفاية .

* * *

فَمَرَّفتُهُ حينئذٍ شَخْصِي ؛ وَآثَرْتُهُ بأَحَدِ قُمْصِي ، وَأَهَبْتُ بِهِ إِلَى قُرْصِي ، فَهَشَّ لِمَارِفتِي وَعِرْفَانِي ، وَلَبَّى دَعْوَةَ رُغفَانِي ،

(١) ديوانه ١٧٤ ، وفيه : « يمدح أحمد بن المعتصم » .

وَانطلَقَ وَيَدِي زِمَامُهُ ، وَظِلِّي إِمَامُهُ ، وَالْعَجُوزُ ثَالِثَةُ الأَثَافِي ، وَالرَّقِيبُ الَّذِي لا يَخْفَى عَلَيهِ خَافِي . فلمَّا اسْتَحْلَسَ وُكُنَتِي ، وَأَحْضَرْتُه عُجَالَةَ مُكْنَتِي ، قالَ لى : ياحَارِث ، أَمَعَنَا ثَالِث ؟ فقُلتُ : لَيْسَ إِلاَّ الْعَجُوزُ ، قال : مادُونها سِرٌّ مَحجُوز . ثمَّ فتَحَ إِحْدَى كَرِيعَتَيْهِ ، وَرأْرأَ بِتَوْءمَتَيهِ ، فإِذَا سِرَاجا وَجْهِهِ يَقِدَانِ ، كأَنَّهُمَا الْفَرْقَدَانِ . فابْتَهَجْتُ بِسَلاَمَةِ بَصَرِه ، وَعَجِبْتُ مِنْ غَرَائِبِ سِيَرِه ، وَلَم يُلِقْنى قَرارٌ ، وَلا طَاوَعَنى اصْطِبارٌ ، حتى سَأَلْتُه : مادَعاكَ إِلَى التَّعالِي ؛ مَع سَيْرِكَ فى الْمَعامِي ، وَجَوْبِك الْمَوامِي ، وَإِيغالِكَ فى الْمَرَامِي !

* * *

قوله : «أهبت به » ،أى دعوته ،وأصل «أهاب» دعالنفسه مَن بَعُد .وقيل : الإهابة دعاء الإبل للشرب . والقُرْص : رغيف صغير سُمِّىَ قرصا ، كأنه قرص من العجين ، أى قُطِع ،والتقريص: التقطيع. هشّ:خف فرحاً. والعارفة ، يريد النعمة وهى المعروف. لبَّى : أجاب وقال : لبّيك ، ومصدره تلبية وهى « تفعلة » ، من الإلباب وهوالّلزوم ، ولبّ بالمكان وألبّ به: أقام ، وأصله لَبَب بثلاث باءات ، فأبدلوا الآخرة ياء استثقالا لاجتماع الأمثال ، كما قالوا : تظنّيت وتمطّيت ، فالياء فيهما بدل من مثل الحرف الذى قبلها ، ثم أتبعوه الإبدال فى المصدر وهو تلبية ، فياؤه باء ، وقولهم :لبّيك، معناه إجابةً بعد إجابة ، ولزوماً لطاعتك بعد لزُوم . رُغفان : جمع رغيفٌ ، يريد أنه لمّا سمع بذكر الخبز ، فكأنّ الخبز دعاه فأجابه . زمامه: مقوده . إلمامه : هاديه . الأثافىّ: حِجارة القِدْر ، وهى ثلاث ، والعرب تقول : رماه الله بثالثة الأثافىّ - يعنون بها الجبل ، لأنهم يجعلون حجَرين

ويلصقونهما بالجبل ، فيقوم الجبل مقام الحجر الثالث ، واحدتها أُثْفِيَّة بالتشديد ، وقد تُخفَّف ، وقد أثفيت القدر وأثفتها وثفَّيتها ، وتسمِّى العرب أثافىَّ الحديد المِنصَب . الرقيب: الحافظ ، يريد الله تعالى. استحلس وُكْنَتِى ، أى دخل بيتى ، وجلس على حِلْسه ، وهو ما يُبسط تحت بسطه ؛ يقيها الأرض ، وفلان حِلْس بيته ، أى لازم القعود فيه ، وفى الحديث : « كن فى الفتنة حِلْس بيتك » ، أى لا تدخل فيها ، والحِلْس : كساء يلِى ظهر البعير تحت البرذعة ويلزمه ، فشُبِّه الذين يعرفون الشىء ويلزمونه بالحِلْس ، ومنه قولهم : لست من أحلاسها ، أى من أصحابها العارفين بها . ومنه بنو فلان أحلاس الخيل ، أى الذين يضمِّرونها ويلزمون ظهورها ، وأحلاس القوافى : المجيدُون فى نظم الشعر ، والوُكْنة: الثقبة فى الحائط يسكنها الطائر ، وقيل : هى الموضع من الشجرة وغيرها ، يقع عليه للمبيت ، وهى الوَكْن ، ووكن الطائرُ وَكْنًا ، فهو واكن إذا حضن على فرخه ، فلزم وُكْنته . عُجَالة مُكنَتى: ما تعجَّل وأمكن من الطعام . محجوز: ممنوع ، وحجزت الشىء :حزته ومنعته ، وحجزت بين الشيئين حجزاً ، فأنا حاجز ، إذا جعلت بينهما حائلا ، والمفعول محجوز ، ومنه الحِجاز ؛لأنها أرض حجزت بين نَجْد والسَّراة . كريمتيه : عينيه ، وفى الحديث قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما من عبد أذهب الله كريمتيْه إلا كان ثوابه عند الله الجنة » قالوا : وما كريمتاه ؟ قال : عيناه . رأْرأ : قلَبَهما وأدارهما إدارة كثيرة . وتوءمتاه : كريمتاه ، وقوله : « مسحَ كريمتيه » ، يريد أنه حكَّهما بكفِّه ، فانتفض عنهما ما كان ألصقهما به ، حتى التحما . وقيل : رأرأ : أدار العين وحدَّدَ نظرها . وتوءمتاه: عيناه، وفى الغريب المصنَّف : رأرأتِ المرأة بعينها ولألأت ، إذا برقت عينُها ، وأنشد ابن الأعرابىّ :

عجبت من الُحور الكريم نجارها تُرأرِىء بالعينين للرجل الحِبْلِ[1]

الحِبْل: الداهية . الفرقدان : نجمان مُنيران فى بنات نعش . ابتهجت: فرحت .

(١) اللسان ــ حبل ، وروايته : « فيا عجبا للخود تندى قناعها » .

سِيَره : عاداته . يُلقِني قرار : يحبسنى سكون وطمأنينة. التَّعامى : استعمال العَمَى . المعامى : الطرُق المجهولة ، وقيل : القِفار البعيدة التى تعمى فيها الآثار فلا يُهتدى فيها . الموامى : القِفار ، واحدها مَوْماة . إيغالك : إبعادك ومبالغة دخولك . المرامى : المقاصد والبلاد التى ترميه إلى بلاد أُخْرَى ؛ يقول : سألته ما الذى دعاك إلى استعمالك العمى مع دخولك لطلبك الرزق فى المشقات وجَوْب البلاد البعيدة ، فلم تجِدْ لنفسك حيلة حتى تشبَّهت بالعميان !

* * *

فتظاهَرَ باللُّكْنةِ ، وتشاغَلَ باللُّهْنةِ ، حَتى إذَا قضَى وَطَرَهُ ، أتأرَ إلىَّ نظرَه ؛ وأنشدَ :

وَلَمَّا تعامى الدَّهرُ وَهْوَ أبو الْوَرَى ... عَنِ الرُّشْدِ فِى أنحائِه وَمَقاصِدِهْ
تَعَامَيتُ حَتى قيلَ إنى أخُو عَمًى ... وَلاَ غَرْوَ أن يحْذُو الْفَتى حَذْوَ والِدِهْ

ثمَّ قالَ لى : انْهَضْ إلَى الْمُخْدَع فائتنى بِغَسُولٍ يَرُوقُ الطَّرْف ، وَيُنَقِّى الْكَفّْ ، وَيُنَعِّمُ الْبَشَرَةِ ، وَيُعَطِّرُ النَّكْهَة ، وَيَشدُّ اللِّثَة ، وَيقَوِّى المَعِدَة ، وَلْيَكُنْ نظيفَ الظَّرْفِ ، أَرِيجَ الْعَرْفِ ، تَقِىّ الدَّقِّ ، ناعِمَ السَّحْقِ ، يَحْسَبُهُ اللَّامِسُ ذَرُورًا ، وَيَخَالُهُ النَّاشِقُ كَافُورًا ، وَاقْرُنْ بِهِ خِلالَةً نَقِيَّةَ الأصلِ ، محبوبةَ الْوَصلِ ، أَنِيقَةَ الشَّكْلِ ، مَدْعاةً إلَى الأكلِ ؛ لَهَا نَحافَةُ الصَّبِّ ، وَصَقَالَةُ الْعَضْبِ ، وَآلَةُ الْحَرْبِ ، وَلَدُونَةُ الْغُصْنِ الرَّطْبِ .

تظاهر : استعان . واللُّكنة : احتباس اللسان ؛ يريد : لمّا امتلأ فمه بالطعام .

لم يتسرّح لسانه بالكلام ، فوجد بذلك علّة لقطع الجواب ، فكأنّ اللُّكنة أعانته على ذلك . اللُّهنة : الطعام المعجّل للصيف قبل الغداء ، وكلّ ما تعجّلته قبل إدراك الطعام لُهنة ، و لَهَّنْت الضيف : علّلته بذلك . قضى وَطَره : أتمّ حاجته من الأكل ، والوطر : المراد ، ولا فعل له . أتأر : تابع نظره وحدّده . الوَرَى : الخلق . آنحائه : أغراضه ومقاصده ، والنّحو كالقصد . لاغرْو : لاعجب . يحذُو حذْوَه : أى يفعل فعله .

[ذكر العمى وما وردفيه من الشعر]

وهذا الاعتذار عن التعامى حسن ، وقد تقدم اعتذار ابن عباس رضى الله عنهما عنه . ومما يعزى للحُصْرىّ[1] فى ذلك :

وقالوا قد عميتَ فقلت كلاَّ ... فإنى اليوم أبصرُ من بَصِيرِ
سواد العين زار سَواد قلبى ... ليجتمِعَا على فهم الأمُورِ

أخذَه من قول بشار :

إذا وُلِدالمولود أعمَى وجدتَه ... وجدِّك أهدَى من بصيرٍ وأحْولاَ[2]
عميتُ جنيناً والذّكاء من العمَى ... فجئت عجيب الظنّ للعلم معقِلاَ
وغاضَ ضياء العين للقلب فاغتدَى ... بقلب إذا ما ضيع النّاس حَصَّلاَ
وشعرٍ كنوْر الرَّوض لاءمتُ بينه ... بقولٍ إذا ما أحْزنَ الشّعْر أسْهَلاَ

وقال بشار :

قالوا العمَى منظرٌ قبيحٌ ... قلت بفقدِى لكُمْ يَهُونُ[3]
تالله ما فى البلاد شئ ... تأسَى على فَقْدِه العُيُونُ

---

(١) الحصرى ، بضم الحاء وسكون الصاد ، منسوب إلى عمل الحصر أو بيعها : على ابن عبد الغنى القيروانى ، صاحب قصيدة « ياليل الصب » ، وهو ابن خالة إبراهيم بن على الحصرى ، صاحب كتاب زهر الآداب ، والبيتان فى نكت الهميان ٧٦ .

(٢) الأبيات عدا الأول فى الأغانى ٣ : ١٤٢ ، ونكت الهميان ٧٥ .

(٣) نكت الهميان ٧٥ .

وعكَس هذا المعنى أبو العيناء حين سأله المتوكل : ما أشدُّ ما عليك فى ذهاب بصرك ؟ قال : ما حرِمتُه يا أمير المؤمنين من رؤيتك مع إجماع الناس على جمالك .

ومما يُستملح من هذا الباب : نشأ أعمَى بين أعورين ، فإذا مشيا أو قعدا ، فحاذى عَورُ هذا عَورَ هذا نشأ بينهما أعمى .

وقال المتنبى يمدح العوَر ويذمّه فى بيت واحد :

أيا ابن كَروّسٍ يانصفَ أعْمَى وإن تفخر فيا نِصْفَ البصيرِ[1]

فإذا انضمّ ابن كَروس إلى مثله نشأ بينهما أعمى ، قال الشاعر :

وبيننا أبداً أعمَى نؤلّفُه قد يخلُق الله عِميانا من العُورِ

وقال آخر :

ألم ترنِى وعَمْراً حين نغدُو إلى الحاجات ليس لنا نظيرُ

أسايره على يُمنَى يديه وفيما بيننا رجلٌ ضريرُ

وقال آخر فى أعور وعوراء تعاشقا :

هى عوراء باليمين وهذَا أعورٌ بالشّمال وافق شَنَّا

بين شخصيهما ضريرٌ إذا ما قَعدَتْ عن شماله تتغنَّى

فأما قول جميل[2] البشكرىّ فى صفة الذئب[2] :

وأعور مِنْ يمناه إن شاء مرّة وإن شاء من يسراه ما كان راقِدَا

لقدفزت دون العُور ـ أوس ـ برتبة[3] وأعطيتَ نابا يفلَق الصخر بارِدَا

---

(١) ديوانه ٢ : ١٤٤ ، قال فى شرحه : يخاطب ابن كروس الأعور وكان يعاديه » .

(٢) كذا فى الأصول ، ولعله تصحيف عن « المنخل » .

(٣) أوس اسم علم على الذئب .

فإنما وصفه بشدة الحذر ، وذكر العور على معنى الاستعارة كما قال حُميد ابن ثور :

ينامُ بإحـــدى مقلتيه ويتّقى بأخْرى المنايا فهو يقظان نائمُ[1]

وقال ابن المعذّل :

أشتهى فى المقلة القبـــلا لا كثيراً يشبه الحوَلاَ
واحمرار الخـدّ من خجلٍ إننى أستحسن الخجَلاَ

وقال آخر :

وأحولٍ ذِى حَرَكَهْ يملأُ بيتى بَرَكَهْ

يريد أنه يرى من الشىء اثنين ، كما قال الآخر :

فقد جعلتُ أرى الشخصين أربعةً والواحد اثنين ممّا بورك البصرُ

لأن هذا يصف الكبَر .

واعتذر القاضى أبو محمد عبدالوهاب[2] عن الحوَل فأحسن ، حيث يقول:

حمِدت إلهى إذ بُليت بحبِّها وبى حَوَلٌ يغنى عن النَّظَرِ الشَّزْرِ
نظـرتُ إليها والرَّقيبُ يظنّنى نظرت إليه، فاسترحت من العُذْرِ

فحَولُه رفع عنه ثقل مؤنة التكلّف الذى ذكر الآخر حين قال :

ولمّا التقينَـا والعيونُ نواظرٌ وليس لنارُسْلٌ سِوَى الطَّرْفِ للطَّرْفِ

---

(١) البيت لحميد بن ثور ، ديوانه ١٠٥ ، : « يقظان هاجم » .
(٢) هو أبو محمد عبد الوهاب بن نصر بن أحمد المالكى ، القاضى ذكره البناهى فى المرتبة العليا ٤٠ ـ ٤٢ .

تنزهّت فى خدَّيْك من نظر خفِى وما زلت أُخفِى الودّ ضعفاً على ضعفى
فإن غفل الواشون فزتُ بنظـرةٍ وإن نظروا نحوى نظرتُ إلى كَفِّى

فلذلك حمِد الله على الحوَل .

وقال الناشى فى هذا المعنى فأحسن :

يتناقلان اللفظ من جفنيهمَا فكأنمـا يتناسخان كتَابَا
وإذا سَهَتْ عَيْنُ الرقيب تخالستْ كفَّاهما خَلْس السَّلام سِلاَبَا

وللقاضى أبى محمد عبد الوهاب ، أنشدنا بعض أشياخنا البيت الثانى والأخير من القطعة التالية ، وكان كثيراً مايحرضنا بها على الطلب ، ويسلّينا عن الغربة :

ومحجوبةٍ فى الخِدْرِ عن كلِّ ناظرٍ ولو برزتْ باللَّيل ماضلَّ مَنْ يَسْرِى
أقولُ لهـا والدَّمع يغلبُ صبرها أعِدّى لفقدى ماستطعتِ من الصَّبْرِ
سأنفِق رَيْعانَ الشبيبة آنفاً على طلبِ العَلْيَاءِ أو طلب الأجْرِ
أليس مِنَ الحرمان أنّ ليالياً تمرُّ بلانَفْـعٍ وتحسَب من عُمْرِى!

ولم ينشدنا البيت الأول ولا الأوسط ، وهما من القطعة .

وأما كلام الحريرىّ الّذى فرغنا من شرحه ؛ فهو منقول من مقامة البديع[1] ، يقول على لسان عيسى بن هشام : «ثمّ فارقهم وتبعتُه ، وعرفت أنه متعامٍ لسرعة ما عرَف الدينار . فلما نظمْتنا خلوة ، مددت يمناىَ إلى يسرى عضديه ، فقلت : والله لتريِّنى سرَّك ،أو لأهتكنّ[2] سِترك ، ففتح عن توءمتيه[3] ، وحدَر لثامه عن وجهه ، فإذا والله أبو الفتح الإسكندرىّ ، فقلت له : أنت أبو الفتح ؟ فقال :

(١) المقامات ٩٣ .
(٢) المقامات : « لأكشفن» .
(٣) المقامات : « توءمتى لوز» .

أنا أبو قلمونْ فى كلّ لون أكُونْ
اخترمن الكسب دوناً فإنّ دهرك دُونْ
زَجِّ الزمان بحمقٍ إنّ الزمان زَبُونْ
لا تكذبنّ بعقلٍ ما العقل إلا الجُنونْ

وعتْب الحريرىّ على العمى فائقٌ فى النثر ، وشعره فى الاعتذار عنه رائق فى النظم ، وهو على انطباعه فى القصد إذا أتى بالبيتين أتى بالعجَب ، وهو فى ذلك كما قيل فى أبى منصور الفقيه : إذا رمَى بزُجَّيه قتل .

* * *

قوله : «المخدع» ، هو بيت داخل بيت ، قال ابن الأنبارىّ : هو الخِزانة فى جانب البيت ، وهو من خدع ، إذا توارى واستتر ، وأخدعه إخداعا : أخفاه ، فمن ضمّ ميم «مُخدع» فهو من «أخدع» ، ومن فتح فهو من «خَدع» ، وخدع الصبُّ فى جُحره خدعاً : دخله خوفاً من صائده . الغَسُول : الأُشنان ، وهو النّقاوة ، ويقال أيضاً : الغاسول ، وكل ماغسلت به ثوبك أو رأسك فهو غِسْل وغَسُول . يَرُوق : يعجب . والطرف : العين . ينقّى : ينظّف . والبَشَرة : ظاهر الجلد . والنكهة : رائحة الفم ، ونكهت الرجل أنكِهه وأنكَهه ـ والفتح أقلّ ـ واستنهكته ، كلّه شممت فاه ، قال الشاعر :

نكِهْتُ مجالداً فشممتُ منه كريح الكَلْبِ ماتَ حَدِيثَ عَهْدِ

واللّثة : اللحم على الأسنان . نظيف الظّرف : نقىّ الوعاء . أريج العَرْف : عَطِر الرّائحة ، والأرَج : فوح الطِّيب وأرَج المسكُ : فاح . فتّ الدقّ : طرىّ الكسر . ناعم : حسن ، قد بولغ فى سحقه ، يريد أنه فى الحال الذى يسحق يستعمل . الناشق : الشامّ . والذّرور والكافور : من أنواع الطيب ، والذّرُور هو

(١) اللسان — نكه ، وفيه : « فوجدت منه » .

المعروف بالذَّريرة ،والذَّرُور أيضاً: غُبار يُذَرّ فى العين، وكلّه مأخوذ من الذّرّ ، وهو التفرّق ، لأن أجزاءه تفرّقت عند سَحْقه ، وفعلُه ذرّ ، وأصلُه ذرَرَ . والكافور مأخوذ من الكَفْر ، وهو التغطية ، فلِشدّة فَوْحِه وحده يستر رائحة غيره من الطِّيب . واللّامس : الذى يمسُّه بيده . الخِلالة : عُوَيد رَقيق يخرج به الطعام من خلل الأسنان . أنيقة الشكل ، معجبة الهيئة ، وشَكْل الشيء : هيئته التى هو عليها . ومدعاة : داعية ، والهاء للمبالغة . نحافة الصَّبّ : رقّة العاشق . والعضْب : السيف القاطع . آلة : عدّة وأداة ، يريد أنها محدّدة مصقولة مثل آلة الحرب. ويروى : « ألّة » بالتشديد ، وهى الحربة . لدونة : لين. نحافة الصبّ : ليس هو تشبيهاً حقيقيًّا ، وإنما أراد أنها أخذت من العاشق نحافته ، ومن العضب صقالته ، ومن الغصن لُدونته ، ولو شبّه الخِلالة فى الرقّة بالعاشق ونحوله لكان جائزاً ، وكان من التشبيه المقلوب ، وكلاهما بديع فى بابه .

والخِلالة التى ذكر ، أصلها نبات لشُجَيْرِ ينبت فى الصيف ، وتطلع له رءوس، يكون فى الواحد منها عدّة من قضبان رِقاق ، فيمسك الرجل منها فى جيبه رأساً، فمتى أكل طعاماً نزع منها قضيباً فتخلّل به ، ويعرف هذا النبات عندنا بالبستينج ، فيحتمل أن يكون هذا بعينه هو الذى عندهم فى المشرق ، وإلا فصفته التى وصفت موجودة فى البستينج من الرقة والصّفاء واللّين والحدة .

وجاء فى الحديث النّهى عن التخلّل بعود الآس والرّمان والقصب ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نقّوا أفواهكم بالخِلال فإنها مسكن الملكين الكاتبين الحافظين ، وإن قلمهما اللسان ، ومدادهما الرّيق ، وليس عليهما شى أشدّ من فضول الطعام ».

أبو أيوب: قال صلى الله عليه وسلم :«حبّذا المتخلّلون فى الوضوء والطعام ».

أبو هريرة قال : قال صلى الله عليه وسلم :« من أكل فليتخلّل، فما تخلّل فليلفظ ، ومالاك بلسانه فليبتلع » .

[استطرد بذكر أشعار فى التشبيه رائقة]

والخِلالة إذا بلغت من رقتها ، أن تقع بين الأسنان ، فالعاشق إذا بلغ الغاية النّحول ، هو الذى يشبّه بها ، كما قال فى التاسعة فى وصف الصبىّ الهزيل من الجوع : « ولى منه سُلالة ، كأنها خِلالة » ، وأخذه من قول ديك الجن :

ارحَمِ اليوم ذلّتى وخُضُوعِى فلقد صرت ناحلًا كالخِلَالِ

وقال أبو الطيّب :

رُوحٌ تَرَدّد فى مثل الخلال إذا أطارت الريح عنه الثوب لم يَبِنِ[1]

فذكر أنّ ثوبه على بدنٍ لم يتبين للناظر . والتشبيه المقلوب عندهم شىء مستظرف ، ومذهب مستحسن كما قال ذو الرّمة :

ورملٍ كأوْرَاكِ العذارَى قطعتُه وقد جَلَّلَتْه المظلماتُ الحنَادِسُ[2]

فقلب التشبيه ، لأن العادة أن تشبّه الأعجاز بكثبان الرمل ، كما قال الآخر :

* مثل قضيبٍ تحته كثيبُ *

وكما قال الآخر :

وبيضٍ نضيراتِ الوجوه كأنّما تأزَّرْن دون الأُزْرِ رملاتِ عالجِ

وأخذه حبيب ، وجوّد الصنعة حيث قال :

كم أحرزت قضُبُ الهندىّ مصلتةً تهتزّ من قُضُبٍ تهتزّ من كُثُبِ[3]

---

(١) ديوانه ٤ : ١٨٦

(٢) ديوانه ٣١٨

(٣) ديوانه ١١

علق قوله: «من قضب تهتز» بـ «أحرزت» يلجّ[1] لك بديع صنعته بسرعة، فإنه أراد: كم أحرزت قُضَب الهند وهى السيوف إذا أُصْلِتت من أغمادها، وهزّت. من قضب، أى قدود نساء. تهتزّ من كُثُب، أى أكفال شبه أكداس رمال.

وما أعذب وأظرف قول البحترى:

أين الغزال المستعير من النَّقَا كَفَلاً ومن نَوْرِ الأقاحى مبسِما[2]

فهذا هو الذى جرت به العادة فى التشبيه، فقلب ذو الرمّة العُرْف والعادة؛ فشبّه كُثبان النَّقَا بأكفال النساء، وتبعه خالد الكاتب وغيره.

حدث جحظة قال: حدثنى خالد الكاتب، قال: جاءنى يوماً رسول إبراهيم بن المهدىّ، فسرت إليه، فرأيت رجلاً أسود على فُرُشٍ قد غاص فيها، فاستجلسنى وقال: أنشِدْنى من شعرك، فأنشدته:

رأتْ منه عينى منظرِيْن كما رأتْ ... من الشَّمس والبدرِ المنير على الأرْض
عشيَّة حيَّـــانِى بوردٍ كأنَّه ... خدود أضيفتْ بعضهنّ إلى بَعْضِ
ونازعنى كأساً كأنّ حَبابها ... دموعِىَ لمّا صَدّ عن مُقْلَتِى غَمْضِى
وراحَ وفعلُ الرَّاح فى حركاتِه ... كفِعْلِ نسيم الريح فى الغُصن الغَضِّ

فزحف حتى صار فى ثلثى الفراش، وقال: يا فتى، شبّهوا الخدود بالورد، وأنت شبهت الورد بالخدود! فزدنى، فأنشدته:

عاتبتُ نفسى فى هوا ... ك فلم أجدها تقبلُ[3]
وأطعت داعِيها إليـ ... ـك ولم أُطِـعْ من يعْذِل
لا والذى جعل الوجو ... ه لحسن وَجْهك تمثلُ
لا قلت إن الصبر عَنْـ ... ـك من التَّصابى أجْمَلُ

(١) كذا فى ا، ب، وفى ط: «يلح».
(٢) ديوانه ١٩٥٨
(٣) الأغانى ٢١ : ٣١

فزحف حتى انحدر من الفراش ، ثم قال: زدْنى ، فأنشدته :

عش فحُبّيكَ سريعــاً قاتلى والصِّنى إن لم تصلنى وَاصِلِى
فأنا بين اكتئابٍ وضَنًى تركانى كالقَضِيب الذّابــل
فبــكى العاذل لِى من رحمةٍ فبــكائى لبــكاء العــاذِل

فاستخفّ طرباً ، ثم قال : يابليق[1] ، كم معك لنفقتنا؟ قال: ثمانمائة وخمسون ديناراً ، قال : اقسمها بينى وبين خالد ، فدفع إلىَّ نصفَها .

وقد سُبِق إلى قوله : « كأنه خدود » ، قال المفضّل: دخلت على الرشيد وبين يديه طبق ورد ، وعنده جاريةٌ مليحة شاعرة أديبة ، قد أهديت إليه ، فقال : يامفضَّل، قُلْ فى هذا الورد شيئاً تشبّهه به ، فأنشأت أقول:

كأنه خَدُّ معشوقٍ يقبّلُه فم الحبيب وقد أبقى به خَجَلاَ

وقالت الجارية :

كأنّه لون خدّى حين تدفعنى كفُّ الرّشيدِ لأمر يوجب الغَسْلاَ

فقال : يا مفضّل قم فاخرج ، فإن هذه الماجنة قد هيّجتنا ، فقمت وأرخيت الستــور .

ولقد أحسن ابن الزقّاق فى قوله :

ورياضٍ من الشقائق أضحتْ تتهادى بهــا نسيم الرياح[2]
زرتها والغمام يجلِد منهــا زهراتٍ تروق لونَ الرّاح
قلت : ما ذنبُها ؟ فقال مُجيباً : سرقتْ حُمْرَةَ الخدود المِلاَح

---

(١) الأغانى : « يارشيق » .
(٢) ديوانه ١٣٥ ، المغرب ٣٢٤ .

وقال البحترى :

فى طلعة الشمس شىء من ملاحتها وللقضيب نصيبٌ من تثنِّيها[1]

وقال ابن المعتزّ :

سقتنىَ فى ليلٍ شبيه بشعرهـا شبيهةَ خدّيهـا بغير رقيب

فأمسَيْتُ فى ليلين: فى الشعر والدجى وشمسين : من خمر وخدّ حَبِيبِ

وأستطرد إلى قلب التشبيه من مبالغة التّحول الذى ذكرنا ، فأقول : إذا صار جسم العاشق من النحول يوصف بمثل قول الشاعر :

أنحلنى الحبّ فـــلو زجّ بى فى مُقْلَةِ النَّائم لم ينتبِـــه

قد كان لى فيما مضى خاتمٌ والآن لو شئت تمنطقت بِهْ

وبمثل قول أبى بكر بن دُريد :

إنَّ الذى أبقيتَ من جسمِهِ يامتلفَ الصبّ ولم يَشْعُرِ[2]

صُبابة لو أنها قطـــرةٌ تجول فى جفنك لم تَقْطُرِ

صار جسم الخِلالة على نحافته أكبر من جسم الصبّ بأضعاف ، فينقلب التشبيه ، وكذلك إذا بولغ فى وصف الأكفال بالعِظَم صغرت عندها الكُثْبان ، فينقلب التشبيه .

وقد ترجم ابن جنّى فى خصائصه ترجمة ، فقال : هذا باب من غلبة الأصول على الفروع ، ثم أنشد بعض ما أنشدنا ، وقرنها بمسائل من العربية حِسان تشبه الباب[3] .

---

(١) ديوانه ٢٤١ ، وفيه : « فى حمرة أورد شكل من تلهبها » .

(٢) ديوانه ٦٧

(٣) الخصائص ١ : ٣٠١ — ٣٠٣

وللمتقدّمين والمتأخّرين فى النحول شعر كثير، ويستحسن فى ذلك قول المجنون:

فأصبحتُ من ليلَى الغداةَ كناظرٍ ... مع الصّبح فى أعقاب نجم مغرّبِ[1]
ألا إنما غادرتِ يا أُمَّ مالكٍ ... صدًى أينما تذهبْ به الريح يذْهَبِ

أخذه المؤمّل فقال:

قد صرتُ من ضعفى إلى حالةٍ ... تجرى لها آماقُ حُسّادِى
يكاد جسمى من نحول الضّنَى ... تحمله أنفاسُ عُوّادِى

وزاد خالد الكاتب، فجعله لا يُدرك إلا بالوهم، فقال:

يا من تجاهلَ عمّا كان يعمله ... عمداً وباح بسرٍّ كان يكتُمُه
غَدَا خليلك نِضْواً لاحَراكَ به ... لم يبق من جسمه إلا توَهّمُه

فزاد ابن المعتزّ، وجعله يخفى على الموت، فقال:

مُسَهَّدٌ خانه التفريق فى أمَلِهْ ... أضناه سيّدُه ظلماً بمرتحَلِهْ[2]
فدقّ حتى لو أنّ الدهر قادَ لهُ ... حتناً لما أبصرته مقلتا أجَلِهْ

فأعدمه المتنبّى واستريح منه، فقال:

أراكِ حسبتِ السّلكَ جسمى فَعُقْتِه ... عليك بدُرٍّ عَنْ لقاء التّرائبِ[3]
ولو قَلَمٌ أُلقيتُ فى شَقِّ رأسِهِ ... من السّقم ما غيّرتُ من خَطّ كاتبِ

* * *

قال: فنَهَضْتُ فِيما أَمرَ، لأَدْرَأَ عَنْهُ الْغَمَرَ، وَلَمْ أَهِمْ إِلَى أَنَّه

---

(١) البيتان فى حماسة ابن الشجرى ١٥٦ بنسبتهما إلى محمد بن النمرى.
(٢) ديوانه ١: ١٤٩. السلك: الخيط. والترائب: محل القلادة من الصدر.

قَصَدَ أَنْ يَخْدَعَ، بِإِدْخَالِي الْمَخْدَعَ، وَلَا تَظَنَّيْتُ أَنَّه سَخِرَ مِنَ الرَّسُولِ، فِي اسْتِدْعَاءِ الْخِلَالَةِ وَالْغَسُولِ.

فَلَمَّا عُدْتُ بِالْمُلْتَمَسِ، فِي أَقْرَبَ مِنْ رَجْعِ النَّفَسِ، وَجَدْتُ الْجَوَّ قَدْ خَلَا، وَالشَّيْخَ وَالشَّيْخَةَ قَدْ أَجْفَلَا، فَاسْتَشَطْتُ مِنْ مَكْرِهِ غَضَبًا، وَأَوْغَلْتُ فِي إِثْرِهِ طَلَبًا، فَكَانَ كَمَنْ قُمِسَ فِي الْمَاءِ، أَوْ عُرِجَ بِهِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ.

* * *

قوله: «أدرأ»، أى أزيل. الغَمَر: الودَك. أهِم: أظنّ، ويذهب وهمى. تظنّيت: حسبت، وأبدل إحدى نونى «ظنّ» ياء تخفيفاً للتضعيف. سخر: هزأ. الملتمَس: المطلوب. الجوّ هنا: داخل البيت. أجفَلا: هربا وأسرعا. قوله: «استشطت»: اشتدّ غضبى. مكرِه: خداعِه. أوغلت: بالغت وباعدت. قُمِسَ: غمس. عُرِج به: طلع به. عَنَان بفتح العين: سحاب، والعَنَانة: السحابة، وأعنَّت السماء: صار لها عَنان، والله الموفِّق للصواب.

المقالة الثامنة وهي المعرية

[معرّة النعمان]

هي بلدة بالشام ، والنُّعمان : اسم جبل مطلّ عليها، والمَعَرّة اسم البلدة ، فأضيفت إليه ، ولها سبعة أبواب ، وعلى جبل منها دَيْر سمعان ، فيه قبر عمر بن عبدالعزيز، وقبر شيث بن آدم عند باب شيث منها ، وداخلها قبر يوشع بن نون ، وله يوم حَفِيل فى كلّ عام ، وإلى المعرّة ينسب الشاعر المعرّى . قال شيخنا ابن جبير : إنه خرج من قِنَّسرين يريد حِمْص، قال : فرأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين بلاد المَعَرَّة ، وهى سواد كلها محاطةٌ بشجر الزيتون والتين والفُسْتق وأنواع الفواكه ، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قُراها مسيرة يومين ، وهى من أخصب البلاد ، وأكثرها أرزاقاً ، ووراءها جبل لبنان ، وهو سامى الارتفاع ، ممتدُّ الطول ، متّصل من البحر إلى البحر ، وفى سفح الجبل حصون للملحدة الإسماعيليّة ، فرقة مَرَقَتْ من الإسلام ، وادّعت الإلهية[1] ، قيِّض لهم شيطان يعرف بسنان ، خدعهم بأباطيل وخيالات ، وموّه عليهم باستعمالها ، وسحرهم بمُحالها ، فاتخذوه إلهاً يعبدونه ، ويبذلون الأنفس دونه ، وحصلوا من طاعته[2] بحيث يأمر أحدهم بالتردِّى من شاهق جبل ، فيتردّى المأمور ، والله يضل من يشاء[3] .

* * *

أخبر الحارثُ بن همّامٍ قالَ : رَأَيْتُ منْ أَعَاجِيبِ الزَّمَانِ ، أَنْ

---

(١) بعدها فى ابن جبير « فى أحد الأيام » .

(٢) بعدها فى ابن جبير « وامتثال أمره » .

(٣) رحلة ابن جبير ٢٣٤

تقدَّمَ خَصْمانِ ، إلَى قاضِى مَعَرَّةِ النُّعْمانِ ، أَحَدُهُما قَدْ ذَهَبَ مِنهُ الأَطْيَبَانِ ، وَالآخَرُ كأَنَّهُ قَضِيبُ البَانِ .

* * *

قوله : « الأطيبان » ، أى الأكل والنكاح ، أى هو شيخ مسنّ ، وقيل : الأطيبان : النوم والنكاح ، وقيل : طيب النكاح ، وطيب النكهة .

أبو هريرة ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « الأطيبان التمر واللبن » .

وسئل شيخ مسنّ من العرب عن حاله ، فقال : ذهب منى الأطيبان : السَّيْر والأيْر ، وبقى الأرْطبان : الضّراط والسّعال .

والبان : شجر تشبَّه بقضبانه القُدود الناعمة .

* * *

فقال الشَّيخ : أَيَّدَ اللهُ القاضِى ، كَمَا أَيَّدَ بِهِ المُتَقاضِى ، إنَّهُ كانت لِى مَملُوكَةٌ رشيقة القَدِّ ، أَسِيلَةُ الخَدِّ ، صَبُورٌ على الكَدِّ ، تَخِبُّ أَحْيَانًا كالنَّهْدِ ، وَتَرقُدُ أَطْوَارًا فِى المَهْدِ ، وَتَجِدُ فى تَمُوزَ مَسَّ البَرْدِ ، ذَاتُ عَقْلٍ وَعِنانٍ ، وَخَدٍّ وَسِنانٍ ، وَكَفٍّ بِنانٍ ، وَفَمٍ بِلاَ أَسْنانٍ ؛ تَلْدَغُ بِلِسَانٍ نَضْنَاضٍ ، وَتَرْفُلُ فِى ذَيْلٍ فَضْفَاضٍ ، وَتُجْلَى فى سوادٍ وَبَيَاضٍ ، وَتُسْقَى وَلَكِنْ مِنْ غَيرِ حِيَاضٍ ، ناصِحَةٌ خُدَعَةٌ ، خُبَأَةٌ طُلَعَةٌ ، مَطْبُوعَةٌ على المَنفَعَةِ ، وَمِطْوَاعَةٌ فى الضِّيقِ وَالسَّعَةِ ، إذا قَطَعَتْ وَصَلَتْ ، وَإنْ فَصَلْتَها عَنْكَ انْفَصَلَتْ ، وَطَالَمَا خَدَمَتْكَ فَجَمَّلَتْ ، وَرُبَّما جَنَتْ عَلَيْكَ فَآلَمَتْ وَمَلْمَلَتْ ، وَإنَّ هَذَا

الفتى استخدمنيها لغرض ، فأخدمتُه إياها بلا عِوَضٍ ، على أن يجتنيَ نفعها ، ولا يكلِّفها إلاّ وُسْعَها ، فأولج فيها متاعَهُ ، وأطال بها استمتاعَهُ ، ثم أعادها إليّ وقد أفضاها ، وبذل عنها قيمةً لا أرضاها .

* * *

المتقاضى ، أى المتحاكم إليه الذى يطلب من الحاكم قضاءه ، وعونه على خصمه ؛ وهذا الغرض الذى ذكره ضرب من الألغاز ، لأنه مشى كلامه فى وصف جارية وغلام ، وقد ضمّن الكلام وصف إبْرَة ومِرْوَد . مملوكة ، يعنى الإبرة جعلها مملوكة لأنها مما يُتموّل . رشيقة القدّ : معتدلة القامة . أسيلة : ملساء . خدّ الإبْرة : شَقّ فيه ثقبها ، وأصل الخدّ شَقّ مستطيل فى الأرض ، والأسالة : ملاسةٌ مع طول .

صبور على الكدّ ، أى صابرة على المشقّة والتعب ، وفعول - بمعنى فاعل - يمتنع من إلحاق الهاء به إذا وقع صفة لمؤنث ، قال عنترة :

إنّى امرؤٌ سهلُ الخليقة ماجدٌ لا أتبع النّفسَ اللّجُوجَ هَوَاهَا

ومنه : امرأة شَكُور وصَبُور ولَجُوج ولَحن أبو محمد خواصّ العراق بقولهم : شكورة ولجوجة وصبورة ، قال : إنّ هذه التاء إنما تدخل فى «فعول» إذا كانت بمعنى «مفعول» ، نحو ناقة رَكوبة وشاة حلوبة[1] . قال : وذكر النحويّون فى امتناع الهاء من «فعول» بمعنى «فاعل» للمؤنث عِلَلاً ، أجودُها أن الصفات الموضوعة للمبالغة نُقلت عن بابها لتدلّ على المعنى الذى تخصصّت به ، فأسقطت الهاء من صبور وفتاة معطار ونظائره ؛ كما ألحقت بصفة المذكّر فى رجل علاّمة ونسّابة ، ليدلّ على تحقيق المبالغة ، وتؤذن بحدوث معنى زائد فى الصفة - وامتناع الهاء المذكورة

(١) قال فى درة الغواص : «لانهما بمعنى مركوبة ومحلوبة» .

أصل مطّرد [لم يشذّ منه إلا قولهم][1]: عدوّة، فإنهم ألحقوه بصَدِيقة، والشيء في أصول العربية [قد] يُحمَل على ضدّه ونقيضه، كما يحمَل على نظيره ورَسيله[2].

تَخُبّ: تثب في الثوب بسرعة. النَّهد: الفرس الضَّخم. أطواراً: أحياناً، ومهدها: مثبر الخائط الذى تُمسك به إبرته. تَمُّوز: أحد الشهور، وهو يوليه. والبرد: أن يبردها الحدّاد بالمِبْرَد ليقوِّمها ويعدِّلها، فالبرد هنا فِعْل صانعها. قال ابن ظَفر: ذهب بالبرْد إلى ما طُبع عليه الحديد من البَرْد في القيظ. قوله: «ذات عقل وعِنان»، أراد بالعِنان الخيط لأنها ترسلُه في الخياطة، والعقل شدّها بالخيط حين تمسك في الثوب. سنان: طرفها المسنون، أى المحدّد. كفّ ببنان: الكفّ والتضريب شيئان معروفان في الخياطة، فيريد أن الخائط يقلّب التضريب بأصابعه وهى البَنان ويكفّه بالإبرة. فم، يريد ثقب الإبرة. تلدغ: تضرب الإصبع. واللسان النضناض للحيَّة، والنَّضْنَضَة، قيل: هى صوت الحيَّة، وقيل: حركة لسانها، وإنما اختُلِفَ فيها لأن الحيَّة إذا ضُيّق عليها فتحت فاها وصفرت وحركت لسانها، فيقال: نضنضتْ، وشبّه طرف الإبرة بلسان الحيّة لكثرة حركته في الثوب؛ وما أحسن قول الشاعر في تشبيه لسان الأفعى بنُورِ السِّراج:

وقنديلٍ كأنَّ النُّورَ منه ... محيَّا مَنْ أحِبّ إذا تَجلَّى
أشار على الدُّجى بلسانِ أفْعَى ... فشمَّر ذيلَه فَرَقاً وَوَلَّى

وقال ابن الصبّاغ الصقلىّ في شمعة:

يطعنُ صدْرَ الدجى بعاليةٍ ... صَنْوبَرِى لسانُ كوكَبِها
كحَيَّةٍ باللسان لاحسةٍ ... ما أدركت من سواد غيْهبِها

وللبيتين الأوّلين حكاية مستظرفة، حدّثنى بها غير واحد من الطّلبة أردت ترك ذكرها لأمرين: لشهرتها، ولأنى وجدت البيتين مثبتين في بعض النّسخ من

(١) من درة الغواص.
(٢) درة الغواص ٦٨.

القلائد لأحد رجالها ، ثم عزم علىّ بعض الأدباء أن أذكرها ، فذكرتها على اختصار لفائدتها ؛ وذلك أن الشاعر المعروف بالبكىّ الهجّاء ، دخل عليه فى ليلة ماطرة ذات رعد وبرق فى بيت فندق دوابّ ـ شخص فى الظّلام لا يعرفه ، وعلى البكىّ بقية من سِلْهامة[1] خَلَقة ، لا يواريه غيرُها ، وعلى الثانى بقية من قميص قد اسودّ من طول البلى وكثرة الأوساخ ، حتى لا يعرف رائيه من أىّ ثوب هو ؛ وقد بلّل كلّ واحدٍ منهما المطر . وهما فى بلاء من الفقر والجوع والبرد ، فرَقّ لهما خادم الفندق ، فدخل عليهما بقنديل ، فعندما نظر كلّ واحد منهما صاحبه تأسّى به ، ورأى أنه قد وجد لنفسه نظيراً فى الشقاء . فقال البكىّ لجليسه : أىّ شىء أنت ؟ فقال : شاعر ، وشؤم الأدب بلغ بى ما ترى ، قال : فأجِزْ ، فقال :

* وقنديلٍ كأنّ النُّورَ منه *

فقال الآخر :

* محيَّا من أحبّ إذَا تجلّى *

فقال البكىّ :

* أشار على الدُّجى بلسانِ أفْعَى *

فقال الآخر :

* فشمّر ذيله فرقاً وَوَلّى *

فقال له البكىّ ـ وقد أعجب به : بمن تعرّف ؟ فقال : بعنق البرة ، قال له : وأنا البكىّ ، فجعلا يتناظران بقيّة ليلتهما فى أيّهما أكثر حرماناً ، حتى أصبحا وكانا يتلمسان . فقال عنق البرة للبكىّ : هلمّ لنقترع ؛ أيّنا يقيم هنا ، وأيّنا يرتحل ؟ فإنا إن بقينا فى موضعٍ واحدٍ ، أدرك الناس من شؤمنا ما يؤدّى بهم إلى الهلاك ، فاقترعا فخرجت قرعة البكىّ بالرحيل ، فارتحل ونزل بفاس ، فحلّ بأهلها من بلائه ما قد شُهِر .

(١) كذا فى الأصول ، ولم أقف على معناها .

قوله : «ترفل فى ذيل فضفاض» ، أى تمشى فى خيط طويل . تجلّى فى سواد وبياض ، أى تبرز فى خيط أسود لخياطة السواد، وأبيض لخياطة البياض. تسقى: أراد سقى الحدّاد لها إذا أخرجها من النار وألقاها فى الماء لتصلُب. ناصحة : خائطة ، والنّصاح : الخيّاط ، ونصحتُ الثوب : خطته . خُدَعة : تخدع الخائط كثيراً ، فتخيط وجه الثوب الأعلى ، وتترك الأسفل ، والهاء فى هذه الصفات للمبالغة . خُبأة طُلَعة ؛ يصف حالها من الخياطة حين تختبىء فى الثوب ، ثم تطلع فى يد الخائط . مطبوعة ، أى مصنوعة لينتفع بها . مِطواعة فى الضيق والسّعة ؛ يريد إذا دفعتَها فى الثوب دخلت فيه ، سواء اتّسع موضع دخولها أوضاق . إذا قطعت وصلت ، يريد إذا قطعت الثوب وفصّلته ألّفته . فصأتَها عنك : نحيّتها ، وجعلتها فى مئبرها . خدمتْك ، أى صرفتها فيما تحتاج من خياطة ثيابك . جَمَّتْ : ألّفت قطع الثوب . جنت عليك فآلمت ، أى ضربتك فأوجعتك وصيّرتْك ذا ألم . ململت ، أى جعلتك متقلّباً لشدة الوجع . قوله : « استخدمنيها »، أى طلب منى خدمتها . الغَرَض : الحاجة ، وأصل الغَرض ما قصَدَتْه سهام الرامى ، ثم سميت الحاجة غرضاً ، لأنها قُصدت بالرغبة فيها . وسْعها : طاقتها وقَدْر ما تحتمل مما تكلف . أولج فيها متاعه ، أى أدخل فيها خَيْطه . أفضاها : خرق عينها ، وفى المرأة خلط مسلكيْها ، من أفضيت إلى الشىء ، وصلت إلى متّسعه ، ومنه: القوم فوضى ، أى متسعون مختلطون . بذل : أعطى .

* * *

فَقَالَ الْحَدَث : أَمَّا الشَّيْخُ فَأَصْدَقُ منَ القَطا ، وَأَمَّا الإِفْضَاءُ فَفَرَطَ عَنْ خطأ ، وقدْ رَهَنْتُهُ ، عَنْ أَرْشِ ما أَوْهنْتُهُ ، مَمْلُوكاً لِي مُتَناسِبَ الطَّرَفَيْن ، مُنْتَسِباً إِلَى القَيْنِ ، نَقِيًّا مِنَ الدَّرَن والشَّيْن ، يُقارِنُ مَحْلُهُ سَوَادَ الْعَيْنِ . يُفْشِي الإِحْسَانَ ، وَيُنْشِي الاسْتِحْسَانَ ،

وَيُغْذِى الإِنْسَانَ ، وَيَتَحَامَى اللِّسَانَ ، إِنْ سُوِّدَ جادَ ، أَوْ وَسَمَ أَجَادَ ، وَإِذَا زُوِّدَ وَهَبَ الزَّادَ ، وَمَتَى اسْتُزِيدَ زَادَ ، لا يَسْتَقِرُّ بِمَغْنًى ، وَقَلَّمَا يَنْكِحُ إِلاَّ مَثْنَى ، يَسْخُو بِمَوْجُودِه ، ويَسْمُو عِنْدَ جُودِه ، وَيَنْقَادُ مَعَ قَرِينَتِهِ ، وَإِنْ لم تَكُنْ مِنْ طِينَتِهِ ، وَيُسْتَمْتَعُ بِزِينَتِهِ ، وإن لَمْ يُطْمَعْ فى لِينَتِهِ.

* * *

[القطـــا]

القَطَا : طائر يصيح «قَطَا قَطَا» فسمِّى بصياحه ، وبما يُفهم من صوته ، ولذلك تسمِّيه العرب الصَّدُوق ، ويقال : أنسَب من قطاة ، لأنها إذا صاحت عرِفت ، وقال الشاعر :

تدعو القطا وبه تدعى إذا انتسبتْ ... ياصِدْقَها حين تدعوها فتنتسبُ
حمراء مقبلةً سَكَّاء مدبرةً ... للماء فى البحر منها نَوْطة عَجَبُ

وقال الكميت :

لا تَكْذِبِ القول إن قالت قطا صدقَتْ ... إذ كلّ ذِى نسبةٍ لا بُدّ ينتحِلُ[1]

وقال أبو وجْزة :

ما زلن ينسُبْن وَهْنًا كلّ صادقة ... باتت تباشر عُرْمًا غير أزواج[2]

---

(١) الحيوان ٦ : ٥٧٨ .

(٢) الحيوان ٥ : ٥٧٣ ، وروايته : « وهن ينسبن » ، والوهن : نصف الليل

يريد ، أن الحمير وَردَت الماء ليلا، فأثارت القطا عن أفاحيصه ، فَصاحت: «قطا قطا »؛ فذلك انتسابه وجعلها صادقة لصياحها قطا . والعُرْم بيضها ، لأن فيه سواداً وبياضاً ، وبَيْض القَطا أفراد ثلاثة أو خمسة ، قال مزاحم العقيلىّ فى القطا وفراخها:

فلمّا دعَتْه بالقَطاة أجابَهـــا بمثل الّذى قالت له لم يبدّلِ[1]

وقال المعرّىّ :

عُرِفت جُدُودك إذ نطقتَ وطالَما لفظ القطا فأبان عن أنسابها[2]

وقال الأصمعىّ : القطا لا تصيح إلا إذا أرادت الماء ، فإذا عدم الماء ، وسمعت العرب صياح القطا ، فرحوا به وعرفوا قُرْب الماء من بعده .

وقيل : سُمِّى القطا لثقَل مشيِه ، يقال : قَطَا الرجل يَقْطُو ، إذا ثَقُلَ مشيه .

* * *

قوله: «فرط» أى سبق . عن خطأ ، أى عن غير تعمّد . رهنته : أعطيته رهْناً ، وأرهنتك: أعطيتك ما ترهنه . والأرْش : قيمة العيب ، أى دية الجرح ، مأخوذ من أرَشَ بين القوم لأنّ الأرش يُختصم فى قدره . أوْهنته : أفسدته ، ووهن الشىء يَوْهَنُ ويهِن: ضعُف ، وأوْهنته أنا ، إذا أضعفته . مملوكا ، يعنى المرود . متناسب الطرفين ، أى هذا الطرف مثل هذا الطرف، تكتحل بأيِّهما شئت . القَيْن: الحدّاد الذى صنعه . الدّرَن : وَسَخ الحديد ، والشَّيْن : العيب ، أى هو مصقول معتدل ليس فيه اعوجاج ولا عيب . يقارن محلّه سواد العين ، أى عند التكحّل به . يفشى : يحدِث ويظهر . وإحسان الكَحَل فى العين لا يخفى . ينشىء استحسان ، أى ينشىء لناظر العين استحسان الكحل فى العين

(١) الحيوان ٥ : ٥٧٨ .

(٢) لم أجده فى سقط الزند ولا فى اللزوميات .

والإنسان : إنسان العَيْن يغذيه بالكُحْل ، والإنسان : السَّواد الذى فى وسط العين ، إذا رأيته رأيت فيه شخصاً ، والشخص هو الإنسان ، فسُمِّىَ السواد به .

يتحامى : يبعدعنه، يريدأنه يكحل العين ولا يقرب من الفم . قوله : « سُوِّد »، أى جعل فيه الكحل . جاد : أعطاه العين . وَسَم العين بالكحل : أجاد عمله فيها . قلّما ينكح إلا مثنى ، أى ينكح عينا واحدة فى الغالب . وقد نظم هذا النثر فى الثانية والأربعين .

جوده ، أى يجود بكحله للعين . ويسمُو : يطلُع للعين ، وجعل له الكحل غذاء يأخذ ويرتفع به للغير . قرينته : مُكحلته . من طينته : من جنسه . زينته : تزيينه للعين يُطمع فى لينته : أى لا يطمع أن يكون الحديد ليِّنا . وكلّ لفظة فسرّ بها المرود والإبرة ، لها لفظ فى ظاهرها غير ما فسّرت به .

* * *

فقال لهما القاضى : إمَّا أَنْ تُبِينَا ، وَإلا فَبِينَا ؛ فابْتَدَرَ الْغُلَامُ ، وَقَال :

أَعَارَنِى إِبْرَةَ لِأَرْفُوَ أَطْـ ... ـمَارًا عَفَاهَا البِلَى وَسَوَّدَهَا

فانْخَرَمَتْ فِى يدِى عَلَى خَطإٍ ... مِنِّىَ لَمَّا جَذَبْتُ مِقْوَدَهَا

فلَمْ يَرَ الشَّيْخُ أَن يُسَامِحَنِى ... بِأَرْشِهَا إِذْ رَأَى تَأَوُّدَهَا

بل قَالَ هَاتِ أُبْرَةً تُمَاثِلُهَا ... أَوْ قِيمَةً بَعْدَ أَنْ تُجَوِّدَهَا

واعْتَاقَ مِيلِى رَهْنا لَدَيْهِ وَنَا ... هيكَ بِهَا سُبَّةً تَزَوَّدَهَا

فالْعَيْنُ مَرْهَى لِرَهْنِهِ وَيدِى ... تَقْصُرُ عَنْ أَن تَفُكَّ مِرْوَدَهَا

فاسْبُرْ بِذَا الشَّرْحِ غَوْرَ مَسكَنَتِى ... وارْثِ لِمَنْ لم يَكُنْ تَعَوَّدَهَا

* * *

تبينا : توضّحا وتفسّرا حديثكما المهمّ الملغز . فبينا : أبعدا ، أو ارتفعا . قوله: «أرفو» أى أخيط ، ويروى «لأرفأ» يقال : رفأت الثوب أرفؤه ورفوته وأرفوه ، والرفو من أدقّ أنواع الخياطة ، وهو نسج الخرق فى الثوب حتى يعود كأنه لم يكن فيه خرق .

[مما قيل فى رَفْو الثياب]

وقال ابن القابلة السبتىّ فى غلام رفّاء :

يارافياً قطع كلّ ثوبٍ ويارَشا حَبّةَ اعتمادى
عسى بخيطِ الوصالِ ترفُو ما قطّع الهجرُ من فؤادِى

وقال الحلوانىّ فى خياط :

ربّ خيّاطٍ فُتنت به فتنة أوهَتْ قُوَى جَلَدِى
لاعبٌ بالخيطِ يفتلُهُ أتراه ظنّه جَسَدِى !
ليت أنى كنتُهُ فأرَى بين ذاك الدُّرّ والبَرَدِ
فعلتْ بالثّوب إبرتُه فعلَ سهم الشَّوْق فى خَلَدِى
وجرى المِقْراض فى يدِهِ جَرْىَ عينيْه عَلَى كَبَدِى

ومن مجون أبى نواس ، أنه كان يؤاكل إسماعيل بن أبى سهل ، فعرضت له على مائدة رُقاقة فى جانبها خُرْق قد ضمّ ، فرفعها بإحدى يديه ونقرَها بالأخرى ، فانفرجت ، وقال وهو يضحك : أخبز كم مرفوء ؟ فلما خرج قال :

خبز إسماعيل كالوَشْى إذا ما انشق يُرْفَا
عجبا من أثر الصنعة فيه كَيْفَ يخفَى
إنّ رَفّاءك هذا ألطف الأمّة كفّا
فإذا قابل بالنّصف من الخبزَةِ نِصْفَا

ألطف الصَّنعة حتى لا ترى المِغْرَزَ أَشْفَى
مثل ماجاء من التَّنُّور ما غادَرَ حَرْفَا

والأطمار : الثياب الخَلَقة ، واحدها طِمْر . عفاها البلى : غَيَّرها القدم ودرسها ، وسوَّدها بالأوساخ حتى صارت فى طبع الثوب ، فمتى غسلت لم تزل.

[مما قالت الشعراء فى الأطمار البالية]

ومما قالت الشعراء فى الأطمار البالية مِمّا يستحسن قول الحمدونىّ فى طيلسانٍ[1] وَهَبَه له أحمد بن حرب المهلبىّ :

يابن حرب أطلت هَمّى برفْوِى طيلساناً قد كنتُ عنه غنيًّا[1]
فهو فى الرّفو آلُ فرعون فى العَرْ ض على النار بكرةً وعشيّا

وقال أيضاً فيه :

طَيْلسانٌ لابن حربٍ يتداعَى لا مَسَاسا
قد طوى قَرْناً فقرناً وأناساً فأناسا
لَبِسَ الأيام حَتَّى لم تَدَعْ فيه لِباسَا
غاب تحت الحسّ حتى لا يُرى إلا قِياسَا

(١) قال الثعالبى فى المضاف والمنسوب ٦٠٢ : كان محمد بن حرب أهدى إلى الحمدونى طيلسانا خلقا ، وكان الحمدونى يحفظ قول ابن حمران السلمى فى طيلسان :

يا طيلسانَ أبى حمرانَ قد برمَتْ بك الحياة فما تلتذّ بالعُمُرِ
فى كل يوم له رفًا يجدّده هيهات ينفع تجديدٌ مع الكِبَرِ
إذا ارتداه لعيدٍ أو لجمعته تنكب الناسَ لا يبلى من النَّظَرِ

واحتذى حذوه ، واثالث عليه المعانى ، حتى قال فى وصف الطيلسان قرابة مائتى مقطوعة ، ولا تخلو واحدة منها من معنى بديع

(٢) المضاف والمنسوب للثعالبى ٦٠٢ ، وفيه : « أطلت فقرى » .

وقال فيه أيضاً :

قل لابن حرب مقالة العاتبْ ... ولستُ فيما أقولُ بالكاذِبْ
أما رأيت الرّفاء يُحزنني ... برفْوِهِ طيلسانَكَ الذّاهِبْ
أفناه جَوْرُ البِلَى عليه كما ... أفْنَى الهوَى عُمرَ خالدٍ الكاتِبْ

وقال فيه أيضاً :

إنّ ابن حربٍ جادلى كاسياً ... بطيلسان هَرِمٍ قَشْعَمِ
انظر إلى كثرة تمزيقهِ ... كأنّما مُزّق فى مأتَمِ
رفوى له وهو رميمٌ كمن ... يبنى بناء فوق مستهدَمِ
يصدعه اللّحظ بإيماضِهِ ... صدع فؤاد العاشق المغرَمِ
يُذْكِرُنى كثرةُ تمزيقهِ ... تفرّقَ الناس عن الموْسمِ

وقال فيه أيضاً :

يابن حربٍ كسوتَنِي طيلساناً ... ملّ من صحبة الزمان وصَدّا[1]
طال تردادُهُ إلى الرفو حتّى ... لو بعثناه وحدَهُ لَتهدّى
فَحَسِبْنا نسج العناكب قد جِئْنَ ... إلى ضعف طيلسانك شدّا

وقال أيضاً فيه :

يا قاتل الله ابن حربٍ لقد ... أطال إتعابى على عَمْدِ
بطيلسانٍ خلتُ أنّ البِلَى ... يطلبه بالوِتْرِ والحِقْدِ
أجدّ فى رفوِى له والبِلَى ... يلهُو به فى الهَزْلِ والجِدِّ

(١) المضاف والمنسوب ٦٠٣

إن أتهم الرافى فى رَفْوِهِ مضى به التمزيقُ فى نَجْدِ
غَنَّيته لما مضى راحلاً : تركتنى ياواحِدى وَحْدِى

والحمدونىّ هو إسماعيل بن إبراهيم حمدويه ، نُسب إلى جده ، وهو من أهل مَيْسان ، وكان حلو التصرّف مليح الافتنان ، وهو القائل :

من كان فى الدنيا له شارةٌ فنحن من نظّارة أدْنَى
نلحظها من كَثَبٍ حَسْرَةً كأننا لفظ بلا مَعْنَى

وقال ابن الرومىّ فى طيلسانه :

ولى طيلسانٌ ناحلٌ غير أنّه ثَبوت لهمات الرياح الزّعازِعِ
وما ذاك إلا أنه متهتّكٌ يخلى سبيلَ الريح غير مُنازَعِ
أراه لضوء الشمس بالعين رؤيةً ويمنعنى من لمسه بالأصابِعِ
شكا ثقل اسم الطيلسان لضعفه فسميته ساجا فهل ذاك نافِعِي !

وقال ابن سارة فى فروة :

أودت بذات يدى فُرَيْوةُ أرنبٍ كفؤاد عُروة فى الضّنَا والرّقّةِ
يتجشم الرّفاء فى ترقيعها بعد المشقة فى قَرِيبِ الشُّقّةِ
لو أنّ ما أنفقت فى ترقيعِها يحصَى لزاد على رمال الرّقّةِ
إن قلتُ : « باسم الله » عند لباسِها قرأت علىّ « إذا السماء انشقّتِ »

وله فيها أيضاً :

لى فروةٌ وصفى لجانحتى بهـا يأتيك بين مقـرّطٍ ومشنّفِ
عطّلْتُ كتب أبى عبيدٍ بالذى ألفّتُ فيها من غَرِيبِ مُصَنّفِ
يسطو علىّ الغرم فى ترقيعها سطوَ الغرام على فؤاد المدنَفِ

فأنا وفروى خوف تمزيقى لَهَا أحكى معاويةً بجنب الأحْنَفِ

وله فى طيلسانه :

وطيلسان هَرِمٍ يُحتَمَى عليه أكلُ الخلّ والبقلِ
كأن كفّىَّ إذا انضمّتا عليه خوف الرّيح فى غُلِّ

ولبعض أصحابه فيه :

على منكب ابن علىّ سَمَلْ تقطّعه لحظات المُقَلْ
إذا غيّم الجوّ أبصرته رهين الذّبول بكفّ البَلَلْ
نسوا طيلسان ابن حربٍ بهِ وصاروا به يضربون المَثَلْ

وله فى غِفارته [1] :

لأحمـــد بن علىٍّ غِفَارةٌ كالسَّرَابِ
إن هبَّ أدنى نسيمٍ تمرّ مرّ السَّحَابِ

والشعر فى هذا الباب كثير .

قوله : « انخرمت » ، أى انكسرت . مقودها : خيطها . تأوّدُها : انكسارها ، وأصله الاعوجاج . أعتاق ميلى : أحبس مِرْوَدِى . ناهيك : كافيك ، ومعناه المبالغة ، كأنه بلغ النهاية فى العَيْب الذى فعل . سُبَّة : عيب يُسَبّ به . مَرْهَى : خالية من الكُحْل ، وقد مَرِه الرجل مَرَهاً إذا لم يتعهد الكحل ، والمَرْهَى من النساء : البيضاء البينة الزَّرَق الذى يختصّ الكحل فى زرقها . اسْبُر : قِسْ . غَوْر : غاية وقَدْر . ارثِ : ارحم وتوجع .

* * *

(١) الغفارة ، كـكتابة : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة .

فأقبلَ القاضِي عَلَى الشَّيخِ ، وَقالَ : إِيه ، بِغير تَمْويه ، فقال :

أَقسمْتُ بالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَمَنْ ضمَّ مِنَ النَّاسكِينَ خَيْفَ مِنَى
لَوْ سَاعَفتْنِي الأَيَّامُ لم يَرَنِي مُرْتَهِنًا مِيلَهُ الَّذِى رَهَنَا
وَلاَ تَصَدَّيْتُ أَبْتَغِي بَدَلاً مِنْ إِبْرَةٍ غَالَهَا وَلاَ ثَمَنَا
لَكِنَّ قَوْسَ الْخُطُوبِ تَرْشُقُنِي بِمُصْمِيَاتٍ منْ ها هنا وَهُنَا
وَخُبْرُ حَالِي كَخُبْرِ حَالَتِهِ ضُرًّا وَبُؤْسًا وَغُرْبةً وَضَنَى
قَد عَدلَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا فأَنَا نَظِيرُه فى الشَّقاءِ وهْوَ أَنَا
لا هُوَ يَسْتَطِيعُ فَكَّ مِرْوَدِهِ لَمَّا غَدَا فى يَدَىَّ مُرْتَهِنَا
وَلاَ مَجَالِى لِضِيقِ ذَاتِ يدِى فيهِ اتِّسَاعٌ لِلْعَفْوِ حِينَ جَنَى
فهذِهِ قِصَّتِي وَقِصَّتُهُ فانْظُرْ إِلَيْنا وَبَيْننَا وَلَنَا

* * *

إيه : كلمة يُستزاد بها الحديث . والتمويه : الكذب ، وهو فى الحديث كالتعمية ، وقد موّه عليه ، إذا خيّل له أنّه على شىء وهو على ضدّه ، وأصل التمويه الصَّقْل ، كأنّ على ألفاظه المموّهة صقالة ، وهو من لفظ الماء . المَشْعر : المزدلفة ، وهو جمع ، سُمِّىَ مشعراً لأنه من علامات الحج ، وكلّ علامات الحج مشاعر ، والمَشْعر والمَنْسك : موضع ذبح الهَدْى بمكة المفضَّل ، سُمِّى مشعراً ، لأنه شعر أنه حرام كالبيت . الناسكين : الحجّاج الذين يُشعرون الهَدْى وما يُنْحر ، أنسَك ونسُكَ مَنْسكا ونَسْكاً ونَسَكاً ، إذا ذبح النُّسُك ، وأصلها ذبائح

الجاهلية ثم سُمّيت الأضاحى ، والنّاسك أيضاً : الزاهد . خَيْف : موضع بمِنى . قوله : « ساعفتنى » : ساعدتنى . تصدّيت : تعرّضت . غالها : أهلكها . الخطوب : الأمور الشداد . ترشقنى : تصيبنى . بمصميات : بسهام قاتلة . بؤس : شدّة حال . ضنًى : ضعف ومرض . وهو أنا ، أى هو مثلى فى ضيق الحال . مجالى : موضع تصرّفى . ذات يدى : مالى ، وذات اليد ما يُملَك . العفو : الغفران . جَنَى : أذنب . قصّتى : حديثى ، يقول : فانظر إلينا بعين الشفقة والرحمة ، وأصلِحْ بيننا بما ننصرف به شاكرين لك ، وهبْ لنا ما نُثنى به عليك ، وجعل النّظر عاملا فى الجميع ، لأن من وجوه النّظر الإصلاح بينهم والتكرّم عليهم .

* * *

فَلَمَّا وَعَى القَاضِى قَصَصَهُمَا ، وَتَبَيَّنَ خَصَاصَتَهُمَا وَتَخَصُّصَهُمَا ؛ أَبْرَزَ لَهُمَا دِينَارًا مِنْ تَحْتِ مُصَلاَّهُ ، وَقَالَ لَهُمَا : اقْطَعَا بِهِ الْخِصَامَ وَافْصِلاَهُ . فتَلَقَّفَهُ الشَّيْخُ دُونَ الْحَدَثِ ، واسْتَخْلَصَهُ عَلَى وَجْهِ الْجِدِّ لا الْعَبَثِ ، وقالَ لِلحَدَثِ : نِصْفُهُ لِى بِسَهْمِ مَبَرَّتِى ، وسَهْمُكَ لِى عَنْ أَرْشِ إِبْرَتِى ، وَلَسْتُ عَنِ الْحَقِّ أَمِيلُ ، فقم وَخُذِ الْمِيلَ . فَعَرَا الْحَدَثَ لِمَا حَدَثَ اكْتِئَابٌ ، وَاكْفَهَرَّ عَلَى سَمَائِهِ سَحَابٌ ، وجَمَ لَهُ الْقاضِى ، وَهَيَّجَ أَسَفَهُ عَلَى الدِّينارِ الماضِى ؛ إِلاَّ أَنَّهُ جَبرَ بالَ الْفَتَى وَبَلْبالَهُ ، بدُرَيْهِماتٍ رَضَخ بِهَا لَهُ ، وقالَ لَهُما : اجتَنِبَا المَعاملاتِ ، وَادْرَآ الْمُخاصماتِ ، وَلاَ تَحْضُرَانِى فِى الْمُحَاكَماتِ ، فَمَا عِندِى كِيسُ الْغَرَامَاتِ .

فنهضا من عنده ، فرحين برفده ، مفصحين بحمده ، والقاضي ما يخبو ضجره ، مذ بض حجره ، ولا ينصل كمده ، مذ رشح جلمده .

* * *

قصصهما ، أى حديثهما ، وهو جمع قصة . خصاصتهما : فقرهما . تخصصهما : رفعتهما وانقباضهما ، وقد تخصص الرجل ، إذا انقبض عن العامة وتشبه بالخاصة. أبرز : أخرج . مصلاه : بساطه الذى يصلى عليه . افصلاه : اقطعاه وأزيلاه . استخلصه : حازه لنفسه خالصاً . الجد : التحقيق . العبث : الهزل . سهم : نصيب. مبرتى : إكرامى الذي وصلنى به القاضى . أميل : أخرج وأعدل عنه . عرا : قصد ونزل به . حدث : ظهر . اكتئاب : حزن وهم . وجم : غضب ، والوجوم : السكوت على غضب . هيج : حرك . أسفه : حزنه . باله : فكره . بلباله : حزنه ووسواسه . رضخ : كثر العطاء . اجتنبا : باعدا . المعاملات : المعاوضات والعوارى . ادركا : ادفعا . كيس : وعاء الدراهم . رفده : عطاؤه . يخبو ضجره : يسكن غضبه : بض حجره : رشحت كفه . قال الأخطل :

كزم اليدين من العطية ممسك ما إن تبض صفاته ببلال[1]

ينصل كمده : يزول حزنه . الجلمد : الصخر الصلب ، كنى به عن كفه ؛ وأنه بخيل ، ويد البخيل تشبه بالحجر ، وقال جرير :

كأنما خلقت كفاه من حجر فليس بين يديه والندى عمل[2]
يرى التيمم فى بر وفى بحر مخافة أن يرى فى كفه بلل

(١) ديوانه ١٥٩ .
(٢) لم يرد البيتان فى ديوانه

وقال ابن عبد ربه :

يَرَاعةٌ غرّنى منها وميضُ سنًا ... حتى مددتُ إليه الكفّ مقتبِسا[1]
فصادفت حجراً لو كنت تضربُه ... من لؤمه بعصا موسى لما انبجسا
كأنما صيغ من لؤم ومن كذِبٍ ... فكان هذا له رُوحاً وذا نَفَسا

أين هذه الأكفّ من التى ذكر حجيّة بن المضرّب ، حين قال :

أناس إذا ما الدهر أظلم وجهه ... فأيديهمُ بيضٌ وأوجههم غُرُّ
يصونون أحساباً ومجداً مؤثّلاً ... ببذلِ أكفٍّ دونها المُزْن والبَحْرُ
فلو لامس الصخر الأصمّ أكفّهم ... أفاض ينابيع النّدى ذلك الصّخْرُ

وقال أبو الشيص :

إنّ الأمان من الزمان وريبِه ... يا عقبَ شطّا بحرك الفيّاضِ[2]
بحرٌ يلوذُ المعتفون بسيْلِه ... فتم الجداول مترعُ الأحْواضِ
لأبى محمد المؤمّل راحتا ... مَلكٍ إلى أعلى العُلا نهّاضِ
فيدٌ تدفّق بالغنَى لصديقه ... ويدٌ على الأعداء سمّ قاضِ

وقال أبو تمام :

تعوّد بَسْطَ الكفّ حتى لو أنّهُ ... دَعَاها لقبضٍ لم تجبْه أناملُه[3]

وقال البحترىّ :

قد قلت للغيث الرّكام ولجّ فى ... إبراقه ، وألحّ فى إرعادِهِ :[4]

(١) العقد ٦ : ٢٩٥ .
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ٧٦
(٣) ديوانه ٣٣٢
(٤) ديوانه ٧٠٣

لا تعرضنّ لجعفرٍ متشبّهاً بندى يديه فلستَ من أندادِهِ
الله شرّفه ، وأعلى ذكرَه ورآه غيثَ بلاده وعبادِهِ

وقال ابن الروميّ :

مُقبَّلُ ظهر الكف وهّاب بطنها له راحةٌ فيها الحطيمُ وزمزمُ
فظاهرها للنّاس ركنٌ مقبّلٌ وباطنها عينٌ من الجود عَيْلَمُ

* * *

حَتَّى إذا أفاقَ مِن غَشْيَتِهِ ، أَقْبَلَ علي غَاشِيَتِهِ وقالَ : قَدْ أَشْرِبَ حِسِّى، وَنبَّأَنِي حَدْسِي؛ أَنَّهُما صَاحِبا دَهَاءٍ ، لاخَصْمَا ادِّعَاءٍ ، فَكَيفَ السَّبيلُ إلَى سَبْرِهِما ، وَاسْتِنْبَاطِ سِرِّهِما ! فقالَ لهُ نِحْرِيرُ زُمْرَتِه ، وشَرَارَةُ جَمْرَتِه : إنَّهُ لم يَتِمَّ اسْتِخْرَاجُ خَبْئِهِمَا إلاَّ بِهِما ، فَقَفَّاهُما عَوْناً يُرْجِعُهُما إليهِ ، فَلمَّا مَثَلا بَينَ يدَيْهِ، قَالَ لهُما: اصْدُقَانِي، سنَّ بَكْرِكما ، وَلَكُما الأَمَانُ مِنْ تَبِعَةِ مَكْرِكُما . فأَحْجَمَ الْحَدَثُ واستَقَالَ ، وَأَقْدَمَ الشَّيخُ وَقَالَ :

* * *

قوله: «غشْيته» ، أى ذهاب عقله بأن يُغمَى عليه . وغاشيته : زوّاره ومَنْ يغشَى موضعه . أشرِب : دُوخِل : حِسّى : إدراكى وفهمى . نبّأنى : حدّثنى، وأخبرنى . حَدْسى : ظنّى ، قال الفرّاء رحمه الله: حدست أحدِس ، إذا قلت فى الشىء برأيك . غيره : حدَست : ظننت ظنًّا بلغت منه غاية الشىء فى عدده أو

وزنه ، وأصله من قول العرب : بلغت الحدْس ، أى الشىء الذى تطلبُ مَلاقه. والدّهاء فى الرجل : الحذق والتبصُّر فى الأشياء . لاخصما ادّعاء ، أى ليس بينهما ادّعاء على الحقيقة فيختصمان فيها . سبْرها : اختبارها . استنباط : استخراج . نِحْرير: حاذق . زمرته : جماعته ، وجعله شرارة ؛ لنفوذ ذهنه واتّقاده ، ولذلك يسمى نحريراً ، أى ماهراً بالأشياء كلها ، كأنه لإدراكه وفهمه بالأشياء ينحرها بظنّه الصادق . خبئهما : خفىّ ما عندها . قفّاهما : أتبعهما . والعون : الشرطىّ ، لأنه يُعين من يتصرّف له . مثلاَ : وقفَا ، يقال : مَثَل الشىءُ ، فهو مائل ، إذا قام وانتصب ، وإذا لطىء بالأرض أو ذهب ، وهو من الأضداد . سنّ بكر كما : حقيقة خبر كما . والبَكْر : الفتىّ من الإبل ، وسنه : مبلغ عمره ، لأنّ بالسنّ يُعرف كم بلغ من العمر ، ولفظ المثل «صدقنى سِنّ بَكره» ، وروى البكرى عن ابن الأعرابىّ أن رجلاً سَامَ رجلاً بَكْراً على أن يشتريه مسنًّا ، فقال البائع : هذا جمل ؛ لبَكْر له ، وقال المشترى : هذا بَكْر ، فقال البائع : بل هو مسنّ ، فبينما هما يتنازعان إذْ نفر البَكْر ، فقال صاحبه : ليسكّن نفاره : «هدع هدع» ، وهى كلمة من العرب يسكّن بها صغار الإبل عند نِفارها ، ولا تقال للكبار ، فقال المشترى عند ذلك : صدقنى سنّ بَكرة . تبعة ؛ شُرِحت فى الصّدر . أحجم : تأخّر فَزِعاً . أقدم : تقدم متشجّعاً . استقال : طلب الإقالة .

* * *

أنا السَّرُوجِىُّ وهَذَا وَلَدِى ... والشِّبلُ فى المَخْبرِ مِثْلُ الأسدِ
وَمَا تعَدَّتْ يدُهُ وَلا يَدِى ... فِى إِبْرَةٍ يَوْمًا ولاَ فى مِرْوَدِ
وَإِنَّما الدَّهْرُ المُسِىءُ المعتدِى ... مَالَ بنا حَتَّى غَدَوْنا نَجْتَدِى
كلَّ ندِى الرَّاحةِ عذْبِ المَوْرِدِ ... وَكُلَّ جَعْدِ الكَفِّ مَغْلُولِ اليَدِ

بِكُلِّ فَنٍّ وبِكلِّ مَقْصِدِ بالجِدِّ إن أَجْدَى وإلاَّ بالدِّدِ
لِنَجْلِبَ الرِّشْحَ إلى الحظِّ الصَّدى وَنُنْفِدَ العُمْرَ بِعَيْشٍ أَنْكَدِ
والموتُ مِن بَعْدُ لَنا بالمِرْصَدِ إن لم يُفَاجِ اليَوْمَ فاجَى فى غَدِ

* * *

الشِّبل : ولد الأسد . المِخْبَر : التجربة والخبرة . تعدّت : ظلمت ، والمتعدّى : الظالم المجاوز الحدّ فى الظلم . مال بنا ، أى حطّنا . نجتدى : نسأل الناس الجدا ، وهو العطاء . ندىّ الراحة : كريم الكفّ . وجعد الكفّ ، ضدّه ، وأراد أن يسأل كل كريم سهل العطاء ، وكل لئيم صعبه ، وأصل الجعودة انقباض الشعر ، ثم استعيرت لقبض الكفّ من اللؤم ، ومثله مغلول اليد ، أى كأنّ يده محبوسة بغُلّ للؤمها ، والسائل كأنه يحاول بسطها بالجود فيجدها محبوسة بغلّ اللؤم ، وفى الكتاب العزيز : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كلَّ البَسْطِ ﴾[1] فهذا نهىٌ عن التبذير .

وقال حبيب فى قصيدة يمدح بها حفص بن عمر الأزدىّ ويذكر الجعودة ، وهى :

يَرَى الوَعْدَ أخزى العارِ إن هو لم تكنْ مواهبُه تأتى مقدّمة الوعْدِ[2]
فلو كانَ ما يعطيه غيثاً لأمطرتْ سحائبُه من غير بَرْقٍ ولا رَعْدِ
من القوم جَعْدٌ أبيضُ الوجه والنّدى وليس بنانٌ يجتدى منه بالجَعْدِ

(١) سورة الإسراء ٢٩
(٢) ديوانه ١٣٠ :

وقال البحترىّ :

صنتَنِي عن معاشرٍ لا أسمِّى أوّليهم إلاّ غَدَاةَ سِبَابِى[1]
من جِماد الأكفّ غير جمادٍ وغضاب الوجوه غير غِضَابِ
خطروا خطرةً الجهام وسارُوا فى نواحى الظنون سَيْرَ السَّحَابِ

وقال أيضاً فى نحوه :

وخلّفنى الزمانُ على أناسٍ وجوههمُ وأيديهمْ حديدُ[2]
لهم حُللٌ حسُنّ فهنّ بيضٌ وأخلاقٌ قبحنَ فهنّ سُودُ
أناسٌ لو تأمّلهمْ لَبيدٌ بكَى خَلْفَ الّذى يشكُو لبيدُ

قوله « الدد » : ضد الجدّ ، وهو اللهو واللعب ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لستَ مَنْ دَدٍ ولا الدّد منى » ، أى لست من باطل ولا الباطل منى أجدَى : نفع. الحظ : البخت والنصيب . والصدِى : العطشان ، وأراد أن حظّه فى الدّنيا قليل ، فهو سعى له ليجلب رزقاً يكثر به حظه . ننفذ : نتمّم . أنكد : مشئوم وكل ما جلَب شرًّا فهو أنكد ونكِد . والمرصَد : الموضع الذى ترتقب فيه من تريد أخذه ، وقد رصدته رصداً ترقبته . يفاج : يأت على غفلة ، وأصله فاجأ بالهمز ، فسهّله .

* * *

فقال له القاضى : للهِ درّك ، فَمَا أَعْذَبَ نفثَاتِ فيكَ ، وواهاً لَكَ لَوْلاَ خِدَاعٌ فيكَ ، وَإِنِّى لَكَ لَمِنَ الْمُنْذِرِينَ ، وعَلَيْكَ مِنَ

(١) ديوانه ٨٦
(٢) ديوانه ٥٨١

الحَذِرِين ، فَلا تُماكِرْ بَعْدَها الحاكِمِينَ ، واتَّقِ سَطْوَةَ المُتَحَكِّمِينَ ، فَما كلُّ مُسَيْطِر يُقِيلُ ، وَلا كُلَّ أَوانٍ يُسْمَعُ القِيلَ .

فَعاهَدَهُ الشَّيخ عَلى اتِّباعِ مَشورَتِه ، والارْتِداعِ عَنْ تَلبِيسِ صُورَتِهِ . وفَصَلَ عَنْ جِهَتِهِ ، وَالجُحْتُرُ يَلْمَعُ مِن جَبْهَتِهِ .

قال الحارِث بن هَمّامٍ : فَلَم أَرَ أَعْجَبَ مِنهَا فى تَصارِيفِ الأَسْفارِ ، ولاَ قَرَأْتُ مِثْلَها فِى تَصانِيف الأسفارِ .

* * *

قوله : «لله دركَ» ، أى ما أحسن كلامك ، والدَّرّ أصله اللبن ، وكأنه سمِّىَ بحكاية صوته عند الحلْب . ولله ، أصله القسم ، ولا تدخل اللام فى القسم إلّا على اسم الله تعالى ، والتعجّب معها لازم ، فإذا قال الذى يسمع صوت الحلب لصاحب الناقة : لله دَرّك ! فكأنه قال : والله إن دَرّك هذا لكثير ، ثم استعير للفصيح فى كلامه ، ولكل من أحسن فى شىء ، فكأنّه قيل : ما أحسن ماجئت به ! وقيل : معناه لله اللبن الذى شربته من أمّك ، قال الفرّاء رحمه الله : ربما قالوا : دَرّك ، ولم يقولوا : لله دَرّك ، وأنشد :

دَرّ دَرّ الشَّباب والشَّعَر الأسـ ـــودِ والضَّامراتِ تحت الرِّجالِ

قوله : «نفثات» ، أى كلمات . واهاً : عجباً . والمنذر : المعلِم بما يخاف . تماكر : تخادع . سطوة : بطشة . المتحكم : الذى يتحكم بما شاء فيُمتثل حكمه . مسيطر : أمير مسلّط . يقيل : يغفر الزلة . أوان : وقت . عاهده : حالفه . مشورته : أخذ رأيه . الارتداع : الكفّ . تلبيس : تخليط . صورته : قصته . فَصَل : زال .

الختْر : الخداع . يلمع : يضىء ، يريد أنه انفصل عنه وعلى وجهه علامة الغدر ، وأنّ يمينه التى حلف له كاذبة ، وأوّل مَنْ نظم فى هذا المعنى الشمّاخ حين قال :

أتتنى تميمٌ قَضُّها بقضيضِهـــا تمسّح حَوْلى بالبقيع سبالَهـا
يقولون لى : احلف ولستُ بحالف أخادعهم عنها لكيما أنالَهَا
ففرّجت همّ النفس عنى بحلفـةٍ كما شقّت الشقراء عنى جلالهـا

ومن الملح فى اليمين الفاجرة ، قول ابن الرومىّ :

وإنى لذو حَلِفٍ كاذبٍ إذاماستمحتُ وفى المال ضِيقُ
وهلى من جناحٍ على معسر يدافع بالله ما لا يطيقُ

وقال فيه أيضاً :

إذا حلّتْ على ضيق دُيُونِى وباكرنى التّجار وخوّفُونِى
دفعتهمُ بمن لو شاء أدّى حقوقهم إليهم منذ حِينِ

ولدِعبل :

سألونى اليمينَ فارتعْتُ عنهَا كى يغروا بذلك الإرتياع[1]
ثم أرسلتها كمنحدَر السَّيْـــل تدلى من المـــكان اليَفاعِ

وأنشد أبو علىّ :

لا شىء يدفعُ حقّ خصمٍ شاغبٍ إلا كحلف عبيدة بن سَمَيْذَعِ
يمضى اليمين على اليمين لحاجة عَضّ الجموح على اللجام المقدِعِ
فإذا يذكر حلفة أصفَى لهـــا وإذا يذكر بالتقى لم يَسْمَع

(١) ديوان ١٠٧ .

قوله: «تصاريف»، أراد التصرّف بالجولان في البلدان. والأسفار: الأوّل: جمع السفر في البلاد، والثاني: جمع سِفْر، وهو الكتاب، قال الفرّاء رحمه الله: الأسفار: الكتب العظام. والتصانيف: التآليف المنوّعة، والمصنّف الذي فيه أنواع شتى.

obeikandl.com

المقامة التاسعة وهي الإسكندرانية

قال الحارثَ بنُ هَمَّام : طَحَابِي مَرَحُ الشَّبَابِ ؛ وَهَوَى الاكتِسَابِ ، إِلَى أَنْ جُبْتُ مَا بَيْنَ فرْغَانَةَ وَغَانَةَ ، أَخُوضُ الْغِمَارَ ، لِأَجْنِيَ الثِّمَارَ ، وَأَقْتَحِمَ الأَخْطَار ، لِكَيْ أُدْرِكَ الأَوطَارَ ، وَكُنْتُ لَقِفْتُ مِنْ أَفْوَاهِ العُلَمَاء ، وَثَقِفْتُ مِنْ وَصَايَا الحُكَمَاء ، أَنَّهُ يَلْزَمُ الأَدِيبَ الأَرِيبَ ، إِذا دَخَلَ الْبَلَدَ الْغَرِيب ، أَن يَسْتَمِيلَ قاضِيَهُ ، وَيَسْتَخْلِصَ مَرَاضِيَهُ ، لِيشْتَدَّ ظَهْرُه عِنْدَ الخِصَامِ ، وَيأْمَنَ فى الْغُرْبَةِ جَوْرَ الحُكَّامِ ؛ فاتَّخَذْت هَذَا الأَدَب إِمَاماً ، وَجعلتُه لِصَالِحِي زِمَاماً ، فَمَا دَخَلْتُ مَدِينةً ، وَلَاوْلجتُ عَرِينَة ، إِلاّ وامْتَزَجْتُ بِحَاكِمِهَا امتزاجَ الماء بالرَّاح ، وتقوّيتُ بعنايتِهِ تقوِّيَ الأجساد بالأرواح .

* ٥ *

طحا بك قلبك ووَهْمك طحْواً وطَحْيًا : ذهب بِكَ ، وطحا الله الأرض. ودحاها: بسطها. ابن الأنبارىّ: طحا قلبه فى الهوى واللهو ، إذا تطاول وتمادى، قال. علقمة :

* طَحَا بِكَ قلبٌ فى الحِسَانِ طَرُوبُ *

مرح الشباب : نشاط الفتوة . جُبْت : قطعت ومشيت .

[ذكر فرغانة]

فرغانة : مدينة فى أقصى خراسان ،وكان فيها بيتٌ يُسمَّى هيكل الشمس ، بناه فارس الملك ، وخرَّبه المعتصم ، وبها قُتِل قتيبة بن مسلم الباهلىّ أمير خراسان سنة ثلاث وخمسين،وبينها وبين سَمَرْقند ثلاثة وخمسون فرسخاً . قال اليعقوبىّ: من سَمَرْقند إلى أسروشنة خمس مراحل شرقا ، ومن أسرُوشَنَة إلى فَرْغَانة مرحلتان ، ومدينة فرغانة التى ينزلها الملك يقال لها كاسان ، وهى مدينة جليلة القَدْر ، عظيمة الأمْر ، وكلُّ هذه المدن مضافة إلى عمل سَمَرْقند . وكان أنوشـ وان بنَى فَرْغَانة ، ونقل إليها من كل بيت قوماً ، وسمَّاها أزهرخانه، أى من كل بيت .

[ذكر غانة]

وغانة : بلد من بلاد السودان ، وإليها ينتهى التجار ، والمدخل إليها من سِجِلْمَاسة و ن سِجِلْمَاسة إليها مسافة ثلاثة أشهر ، ومن غانة إلى سِجِلْمَاسة شهر ونصف ، ودون ذلك ، وسبب ذلك أن الرِّفاق تتجهّز إليها من سِجِلْمَاسة بالأمتاع والأثقال ، فتباع فى غانة بالتِّبر،فمن سافر إليها بثلاثين حِمْلاً يرجع منها بثلاثة أحمال ، أو بحملين: واحد لركوبه ، وثانٍ للماء بسبب المفازة التى فى طريقها ، حدَّثنى غيرُ واحدٍ من تجارها أنهم يقطعون المفازة فى ستة عشر يوماً ، لا يرَوْن فيها ماء إلاّ على ظهور الإبل ، فأثمان أحمال الثلاثين جملاً يجتمع فيها من التِّبْر ما يجعل فى مِزْوَد واحد ، فيطوون المراحل للخِفَّة . وغانة بلد مملكة السودان، وانتشر الإسلام فى أهلها ، وبها مدارس للعلم،وبها من تجار المغرب كثير يدخلون للتِّجارة فيصيبون الخِصْب والأمن وكثرة المتاجر ، فيشترون بها خدما للتَّسرِّى، ويقيمون بها عند أميرها فى غاية الكرامة ، والخدم فيها قد جعل الله فيهنّ من

الخصال الكريمة فى خُلُقهن وخَلْقهن فوق المراد، من ملاسة الأبدان، وتفتق السواد، وحسن العينين ، واعتدال الأنوف ، وبياض الأسنان ، وطيب الروائح .

[مما ورد من الشعر فى وصف السواد والبياض]

وكان ابن الرومى وصف واحدة منهن بقوله :

تذكّرك المسك والغوالى والنـــدّ ذواتُ النَّسيم والعَبَقِ
ليست من العُبَّس الأكف ولا الـــفُلجِ الشّفاه الخبائثِ العَرَقِ
أكسبها الحبّ أنها صُبِغَتْ صِبْغة حَبِّ القلوبِ والحدَقِ
يفـــترذاك السّواد عن يقَقٍ من ثَغْرِها كاللآلىء النَّسَقِ
كأنّها والمِزاح يضحكها ليلُ تعرّى دُجاه عن فَلَقِ
لها حِرٍ يستعيرُ وقدتَه من قلبِ صبٍّ وصدر ذى حَنَقِ
يزداد ضيقاً على المراسِ كما تزداد ضيقا أنشوطُة الوَهَقِ
غصن من الآبنوس ركّب فى مؤزّر معجِب ومنتطِقِ

وقال الشّريف الرضى :

أحبُّك يالونَ السَّوادِ فإنّنى رأيتُك فى العينين والقلب تَوْأَمَا[1]
وما كان سهمُ العين لولا سَوادُها ليبلغ حبَّاتِ القُلوب إذا رَمَى
إذا كنت تهوى الظبى ألْمَى فلاتلمْ جنونى على الظّبى الذى كلّه لَمَى

وقال ابن مسلمة :

يكونُ الخالُ فى خدٍّ قبيحٍ فيكسوه الملاحَـــةَ والجَمالاَ

(١) ديوانه ٧٥٥ .

فكيف يُلامُ مشغوفٌ على مَنْ يَرَاها كلَّها فى العَيْنِ خَالاَ!

وله أيضا :

لام العواذلُ فى سوداء فاحمةٍ كأنّها فى سواد القلب تمثالُ
وهام باغتالِ أقوامٌ وما عَلِمُوا أنِّى أهيمُ بشخصٍ كلّه خَالُ

ولابن رباح :

وسوداء الأديمِ إذا تبدَّت يرى ماء النعيم جرى عليهِ
رآها ناظرِى فصبَا إليها وشِبْهُ الشّىء مُنْجَذِبٌ إليهِ

ولابن رشيق :

دعا بِكِ الحِسن فاستجيبِى يامسكُ فى صبغةٍ وطيبِ (١)
تيهِى على البيض واستطِيلِى تِيْهَ شبابٍ على مَشِيبِ
ولا يرعْك اسوادُ لونٍ كمُقْلَةِ الشّادِنِ الرَّبِيبِ
فإنّما النُّور عن سوادٍ فى أعين النـاس والقُلُوبِ

قال ابن رشيق : أخذته من قول الآخر ، أنشده الجاحظ :

مشبهاتُ الشَّبابِ والمسك تفديهـــنّ نفسى من الرَّدَى والخطوبِ
كيف يهوى الفتى اللبيب وصَالَ الـــبيض ، والبِيضُ مشبهات المشِيبِ

وأخذ بيته الآخر من قول الآخر، أنشده الجاحظ :

وإنّ سواد العين فى العين نورُها وما لبياضِ العينِ نُورٌ فَيُعْلَمُ

فأخذه أيضاً أبو الطيب ، فقال فى كافور وأحسن :

---

(١) الغيث المنسجم ٢: ١٦١ ، معاهد التنصيص ٢: ٢٣ ، ديوان الصبابة (على هامش تزيين الأسواق) ٦٨ .

فجاءت بنا إنسانَ عينِ زمانه وخلَّتْ بياضاً خَلْفَها ومآقيا[1]

ولابن الجَهْم :

وعائب للسُّمْرِ من جهلِهِ مفضّلٌ للبيض ذى مَحْك[2]

قولوا له عنّى : أما تستحى ! مَنْ يجعلِ الكافور كالمسك !

والسابق لهذا المعنى أبو حفص الشّطرنجىّ ، والناس تبَع له حيث قال :

أشبَهكِ المسكُ وأشبهتِه قائمة فى لونه قاعدَهْ

لا شكّ ـ إذ لونُكما واحدٌ أنّكما من طينةٍ واحده

على أنّ العباس[3] بن الأحنف معاصره ، قال:

أحِبّ النساء السُّود من أجل تكتمٍ

ومن أجلها أحببت ما كان أسْوَدَا

فجئنى بمثلِ المسك أطيبَ نكهةً وجئنى بمثل اللّيلِ أطيبَ مَرْقَدَا

أخذ بيته الأول من قول ابن الأعرابىّ :

أحبُّ لحبّها السّودان حتّى أحبّ لحبِّها سودَ الكلاَبِ

وقال ابن الرومىّ فى تفضيل السّواد على البياض :

وبعضُ ما فُضّل السّواد به والحقّ ذو سلَّم وذو نَفَقِ

ألا يَعيب السوادَ حُلْكتُه وقد يُعاب البياض بالبَهَقِ

وهذه الأقوال كلها على استحسانها اعتذارات واقتدارات من الشعراء على تحسين القبيح ، والأمر المجمع عليه تفضيلُ البياض .

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٨٧

(٢) ديوانه ١٦٢ (عن الشريشى)

(٣) كذا فى ب ، وفى ط ، ا : « على بن العباس » ، تصحيف ، ولم أجد الأبيات فى ديوان عباس بن الأحنف .

قال الجاحظ : العرب تمدح بالبياض ، وتهجو بالسّواد ، وربما مدحوا بالسّواد ، ولـكن أصل مايبنون عليه أمرهم ذمّه ، وأنشد :

لهمْ ديباجةٌ عُرِفت قديمـاً بياضٌ فى الوجوه وفى الجُلودِ

وأحسن كشاجم فيما قصد إليه بقوله :

يامشبهـاً فى فعـلِهِ لونَه لم تعدُ ما أوجبت القِسْمَهْ[1]
خُلْقُك من خَلْقِك مستخرَجٌ والظلم مشتقٌّ من الظُّلْمَهْ[2]

قوله :«جبت مابين فرغانة وغانة» ، ماهاهنا بمعنى الذى ، كأنه قال: جبت الذى بين فرغانة التى هى أقصى المشرق ، وغانة التى هى أقصى المغرب من البلاد والقفار والبحار لـكسب المال ، فماهى التى أوجبت لِمَا بين البلدتين ما ذكر أن يعمّ بالمشى ؛ ولوسقطت لم يلزم العموم ، وكأنه يشير بهذا التعبير إلى قول حبيب :

سَلِي هل عمرت القَفْرَ وهو سَبَاسِبٌ وغادرت رَبْعِي من ركابى سَبَاسِبَا[3]
وغرّبت حتى لم أجد ذكر مشرقٍ وشرقت حتى قد نسيت المَغَارِبَا

قوله : « أخوض الغمار » ، أى أدخل المياه الغزيرة فأجوزها . أقتحم الأخطار ، أى أترامى فى المخاوف . والخطَر : الغرَر . والأوطار : الحاجات . وقال أبو عمر القسْطلّى[4] فيما يتعلق بهذا :

تخوّفنى طُوْلَ السّفار وإننّى لتقبيلِ كفّ العامرىّ سَفِيرُ
دعينى أرِدْ ماء الفرات فإننى إلى حيث ماء المكرمات نَمِيرُ

(١) ديوانه ١٧ ، وفيه : « فى لونه فعله » .
(٢) فى الديوان : « عالمك من خلقك » .
(٣) ديوانه ١٧ ، والسباسب : القفار الفسيحة .
(٤) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن العاس بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج ، المعروف بابن دراج القسطلى ؛ فى ط : « أبو عمرو » ، خطأ ، وذكر فى بعض تراجمه ؛ وقد نبه إليه الدكتور محمود مكى فى حواشيه على ديوان ابن دراج ص ٢١ ، والأبيات فى ديوانه ٢٩٨ .

ألم تعلمى أنّ الثواء هو النَّوَى وأن بيوتَ العاجزين قبورُ
وأن خطيرات المهالك ضُمّنٌ لراكبها أنّ الجزاء خطِيرُ

وقال النابغة الجعدىّ :

إذا المرء لم يطلبْ معاشاً لنفسِهِ
شكا الفقر او لام الصَّدِيقَ فأكثَرَا[1]
فسِرْ فى بلاد الله والتمسِ الغِنَى تَعِشْ ذا يسار أو تموت فتُعْذَرَا

وقال ابن سارة :

سافِرْ فإنّ الفتى من بات مفتتحاً قُفلَ النجاح بمفتاحٍ من السَّفَرِ
إن شئت خضرتها يا ابن الرّخاء فكنْ
فى طىّ عمر الفيَافِى نائِىَ الحضَرِ
ولا يصدَّنْك عن أمرٍ تصعّبُه قدينبع الكوثر السلسال من حَجَرِ
لابدّ أن يقع المطلوب فى شَرَكٍ ولو بنى وكْرَهُ فى دارةِ القَمَرِ

[باب فى الحضّ على السفر وترك العجز]

ومما ينتظم فى باب الحضّ على السفر وترك العجز قولهم : لا ينبغى للعاقل أن يكون إلا فى إحدى المنْزلتين ، إما فى الغاية من طلب الدنيا ، وإما فى الغاية من تَرْكها ، ولا ينبغى للعاقل أن يُرى إلاّ فى أحدمكانين، إما مع الملوك مكرّماً ، وإما مع العباد متبتّلاً ، ولا يعدّ الغرم غرما إلا إذا ساق غُنْماً،ولا الغُنْم غنما إلاّ إذا ساق غُرْماً ؛ ونظم هذا المعرىّ فقال :

(١) ديوانه ٧٣

ذرِ الدّنيا إذا لم تَحْظَ فيها وكُنْ فيها كثيراً أو قليلاً[1]
وأصْبح واحدَ الرّجلين إمّا مليكاً في العشائرِ أو أَبِيلاً

الأبيل : الراهب .

وفي كتاب الهند : من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب .

وفي التوراة : ابنَ آدم، خُلقتَ من الحركة إلى الحركة ، فتحرّك وأنا معك .

وفي بعض الكتب : امدد يدك إلى بابٍ من العمل ؛ أفتح لك باباً من الرزق .

وقالوا : مَنْ ضعُف عن عمله اتّكل على رزق غيره .

وقال عليّ رضي الله عنه : الحرص مقدّمة الكون .

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس : ما المروءة فيكم ؟ قالوا : العفّة والحِرفة .

ورُئِيَ عكْرِمة وراء نهر بَلْخ ، فقيل له : ما جاء بك هاهنا ؟ فقال : بناتي .

وقال رجل لمعروف الكرخيّ : يا أبا محفوظ أتحرّك لطلب الرزق أم أجلس ؟ قال : لا بل تحرّك ، فإنه أصلحُ لك ، فقال : أتقول هذا ؟ قال : وما أنا قائله ولكن الله عز وجل أمر به ، قال لمريم عليها السلام : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾[2] ولو شاء لأنزله عليها .

وأنشد الثعالبيّ :

ألم تَرَ أنّ الله أوْحَى لمريمٍ وهزّي إليك الجِذْع يسّاقطْ الرُّطَبْ

(١) سقط الزند ١٣٧١ .
(٢) سورة مريم ٢٥

ولو شاء أن تجنيَه من غير هَزِّها جنَتهُ ، ولـكن كلّ شيء له سَبَبْ

وقال موسى بن عمران عليه السلام :لاتلوموا السَّفَر ؛ فإنى أدركت فيه مالم يدركه أحد ؛ يريد أن الله كلَّمه فيه .

ونظم هذا المعنى حبيب فقال :

فإن موسى صلّى على روحه الله صـــلاةً كثيرة القُدُسِ[1]

صـــار نبيًّا وعُظْمُ بُغيَتِهِ فى جذوة للصَّلاَء والقَبَسِ[2]

قال المأمون : لاشيء ألذُّ من السفر فى كفاية ؛ لأنك تحلّ كل يوم فى مَحِلَّةٍ لم تحلّها ، وتعاشر قوماً لم تعاشرهم .

الثعالبيّ : من فضائل السفر أن صاحبه يَرَى من عجائب الأمصار ، وبدائع الأقطار ، ومحاسن الآثار ، مايزيده علماً بقدرة الله ، ويدعوه إلى شكر نعمته .

وفى الأثر الصحيح : سافروا تصحُّوا وتغنموا .

آخر : السفر يشدّ الأبدان ، وينشّط الكسلان ، ويشهّى إلى الطعام .

آخر : ليس بينك وبين بلد نَسب ، فخير البلاد ماحَملك .

قال ابن رشيق : كتبتُ إلى بعض إخوانى: مثل الرجل القاعد -أعزّك الله- كمثل الماء الراكد ، إن تُرِك تغيّر ، وان تحرّك تكدّر ، ومثل المسافر كالسحاب الماطر ، هؤلاء يَدْعونه رحمة ،وهؤلاء يَدْعونه نقمة ، فإذا اتصلت أيامه ، ثقل مقامه ، وكثر لُوّامه ، فاجمع لنفسك فرجة الغيبة ، وفرحة الأوبة ، والسلام .

وقال ابن رشيق :

غِبْ عن بلادِك وارْجُ حسن مغيَّبةٍ إن كنت حقا تشتكى الإقْلاَلاَ[3]

---

(١) ديوانه ١٧٠ . والقدس : الطهارة

(٢) البغية : المطلب . الجذوة : الجمرة ،والصلاء ، التدفؤ .

(٣) نقله فى التنف ٥٩

فالبدرُ لم يُجْحِفْ به إدباره ألّا يسافر يطلب الإقبالا

وقال أبو الطيّب :

وما بلد الإنسان غير الموافِق ولا أهله الأدنَوْن غير الأصادقِ[1]

وقال البحترىّ :

وإذا ما تنكرت لى بلادٌ أو صديق فإننى بالخيارِ[2]

وقال أبو الطيّب :

إذا لم أجِدْ فى بلدةٍ ما أريده فعندى لأخرى عَزْمَةٌ ورِكَابُ

وقال إبراهيم بن العبّاس الصولّى:

لا يمنعنَّك خفضَ العيشِ فى دَعَةٍ نزوعُ نفسٍ إلى أهلٍ وأوطَانِ[3]

تلقَى بكلّ بلادٍ إن حللتَ بها أهلاً بأهلٍ وجيرانًا بجيرَانِ

أى لا يمنعنَّك الشوقُ إلى الوطن فى الغربة من الاستمتاع بلذة العيش ، فالأرض واحدة ، والناس جنس واحد . وفى غير الحماسة :

لا يمنعنَّك خفضُ العيشِ فى دعةٍ من أن تبدّل أوطاناً بأوْطَانِ

برفع «خفض» ، أى لا يمنعنك عيشك الهنىء فى بلدك أن تجول فى البلدان ، وترى الناسَ ، فتستفيد النزهة والتجربة .

وقالوا : المسافر يسمع العجائب ، ويكشف التجارب ، ويجلب المكاسب . أوحِشْ أهلك إذا كان أنسُك فى إيحاشهم ، واهجر وطنك إذا نبتْ نفسك عنه .

قيل لأعشى بكر : إلى كم ذا الاغتراب ؟ أما ترضى بالدّعة ! قال : لو دامت الشمس عليكم يومين لملتموها .

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٢٠ .

(٢) ديوانه ٩٨٧

(٣) ديوانه ١٥١ ، ديوان المعانى ١ : ١٩٢ .

أخذه حبيب فقال :

وطولُ مُقام المرء فى الحىِّ مُخْلِقٌ ... لديباجتيْه فاغتَرِبْ تتجدَّدِ [1]

فإنّى رأيتُ الشَّمسَ زيدَتْ محبَّةً ... إلى النَّاسِ أَنْ ليستْ عليهم بسَرْمَدِ

وقال الحكماء :لاتُنال الراحة إلا بالتعب، ولا تدرَك الدّعة إلا بالنّصَب .

وقال حبيب :

على أننى لم أحوِ وَفْرا مجمَّعاً ... ففزت بِهِ إلاَّ بشملٍ مبدّدِ [2]

ولَمْ تُعْطِنِى الأيّام يوماً مسكّناً ... ألذّ به إلا بنومٍ مُشَرّدِ

وقال ابن عبد ربه :هل يجوز فى عقل ، أو يمثُل فى وهم ، أو يصحّ فى قياس ، أن يُحْصَد زرعٌ بغير بَذْر ، أو يثمّر مالٌ بغير طلبٍ ، أو تُجْنَى ثمرة بغير غَرْسٍ ، أو يُورَى زندٌ بغير قَدْح ! وقد يكون الإكداء مع الكدّ ، والخيبة مع الغيبة .

وقال الشاعر :

ومازلت أقطعُ عَرْضَ البلادِ ... من المشرقيْن إلى المغربين

وأدّرع الخوفَ تحت الدُّجَى ... وأستصحب الجَدْىَ والفرقدَيْن

وأطوِى وأنشرُ ثوبَ الهمومِ ... إلى أن رجعتُ بخُفَّىْ حُنَيْن

وقال ابن رشيق :

يُعْطَى الفتَى فينالُ فى دَعَةٍ ... مالم ينل بالكدِّ والتَّعَبِ [3]

فاطلُبْ لنفسك فَضْلَ رَاحتِهَا ... إذْ ليست الأشياء بالطَّلَبِ

إن كان لا رزقٌ بلا سببٍ ... فرجاء ربِّك أعظمُ السَّبَبِ

وقال محمد بن يسير :

---

(١) ديوانه ١٠٠ ، ١٠١

(٢) ديوانه ١٠٠ ، وفيه : «ولكننى لم أحو » .

(٣) نقله فى التنف ١١

قد يُرزَق الخافضُ المقيمُ وما شدَّ لِعنْسٍ رَحْلاً ولا قَتَبَا (١)
ويحرَم المـــال ذو المطية والرَّ حل ومَنْ لايزال مُغْتَرِبَا

وقال آخر :

قد يُرزَق المرء لم تتعب رواحلُه ويحرَم الرِّزقَ بالأسفار والتَّعَبِ
إنّى وعمرك ما أحصى ذَوِى حمقٍ الرزق أعْدَى بهم من لاصق الجرَبِ

ولآخر :

ألا ربَّ باغى حاجةٍ لاينالُها وآخر قد تُقْضَى له وهو جَالِسُ

آخر :

قد يُرْزق المرء، لا من حُسنِ حيلته ويُصرف الرزق عن ذى الحيلة الدَّاهِى
مامسَّنى من غنًى يَوْمٍ ولا عدَمٌ إلا وقولى فيـــه : الحمـــدُ للهِ

آخر :

لو كان باللبّ يزداد اللبيب غنًى لـكان كلّ لبيب مثل كافُورِ
لـكنّه الرّزق بالقسطاس من حِكَمٍ يُقْصَى اللبيبُ، ويعطى كلّ ماخُورِ

ومثل هذا قليل فى كثير وإنما يحكم بالأغلب ، والنُّجْح مع الطلب أكثر، والحرمان للعاجز أصحب ، وشرح حبيب هذا المعنى فقال :

همّ الفتى فى الأرض أغصانُ المنى غُرِسَتْ وليست كلّ حين تُورِق

أوصى بعضُ الحـكماء ابنَه وأراد سفرا ، فقال : إنّك تدخل بلداً لاتعرفه، ولا يعرفك أهله ،فتمسَّكْ بوصيّتى تنفُق بها ؛ عليك بحسن الشمائل ؛ فإنها تدلّ على الحرّية ، ونقاء الأطراف فإنها تشهد بالملوكية ، ونظافة البِزَّة فإنها تشهد بالنشء فى النعمة ، وطيب الرائحة فإنها تظهر المروءة ، والأدب الجميل فإنه يُكسب المحبَّة ، وليـكن عقلُك دون دينِك ، وقولُك دون فعلِك ، ولباسُك دون قدرِك ، والزم

(١) الأغانى ٥ : ٢١ ، من أبيات نسبها إلى بن عبدل الأسدى

الحياء والأنفة فإنّك إن استحييت من الفظاظة اجتنبت الخساسة ، وان أَنِفْتَ من الغلبة لم يتقدّمك نظير فى مرتبة .

قوله : «لقِفت» ، أخذت ، واللَّقَف: أخذما يرمى إليك بيدك. ثقِفت: قيدت، ويُمدح الرجل الحازم به فيقال: فلان ثقفٌ لَقِف. والأريب : العاقل، وقد أرَب أرابة وأرَبًا ، صار أريباً ، والأريب من أربت العُقْدة أرَبا ، شددْتها . يستميل: يستنزل ويدعوه أن يميل إليه . يستخلص مراضيه ، أى يحوزها لنفسه . ومراضيه: مايُرْضى القاضى ويوافقه ، وهو جمع مَرْضاة ، ويقال :صلة الرحم مَرْضاة للربّ ، أى يرضيه برّها ،يقول:العاقل إذا دخل بلدة استعطف قاضيَها لنفسه، بحسن خلقه حتى يخفّ عليه أمره . ليشتدّ : ليتقوّى . جَوْر : ظُلم ، إماماً : قُدْوة ، زماماً: حبلاأقودها به . ولجت : دخلت . عرينة : بلدة ، وأصلها بيت الأسد . الراح : اسم الخمر ، وأبهم علَى ابن الرومىّ ممّ اشتُقّ اسمها حين قال :

واللهِ ما أدرِى لأيَّةِ عِلَّةٍ يدعونها فى الرَّاح باسم الرَّاحِ
أليحها أم رُوحها تحت الحشا أم لارتياح نديمها المرتاحِ !

وانظر الامتزاج الذى ذكر فى الخامسة والأربعين .

عنايته : اعتناؤه به واهتمامه .

* * *

فبينما أنَا عِنْدَ حَاكِمِ الإسكندرِيَّةِ ، فى عَشِيَّةٍ عَرِيَّةٍ ، وَقَدْ أَحْضَرَ مَالَ الصَّدقَاتِ ، لِيَفُضَّهُ عَلَى ذَوِى الْفاقَاتِ ، إذْ حَلَّ شَخْصٌ عِفْرِيَةٌ ، تَعْتِلُهُ امرأةٌ مُصْبِيَةٌ ، فقالَتْ : أَيَّد اللهُ القاضى ، وَأَدَامَ بِهِ التَّرَاضى ، إنّى امرأةٌ من أكْرَمِ جُرْثومةٍ ، وأطهرِ أُرُومةٍ ،

وأشرفِ خُتولةٍ وعمومةٍ ، ميسَمِي الصَّوْن ، وَشِيمَتِي الهَوْن ، وَخُلُقِي نِعْمَ الْعَوْن ، وبيني وبين جاراتي بَوْن ، وَكَانَ أَبِي إذا خَطَبَنِي بُنَاة المجدِ ، وَأَرْبابُ الْجِدِّ ، سَكَّتُهُمْ وَبَكَّتُهُمْ ، وَعَافَ وُصْلَتَهُمْ وَصِلَتَهُمْ ، وَاحْتَجَّ بأَنَّه عَاهَدَ اللهَ بِحِلْفَةٍ ، أَلاَّ يُصَاهِرَ غَيْرَ ذِي حِرْفَةٍ .

* * *

[ذكر الإسكندرية]

مدينة عظيمة من بلاد مصر ، بناها الإسكندر ذو القرنين ، وهو الذى مشى مشارق الأرض ومغاربها . قال السدّىّ : لما سأل أهلُ الكتاب النبىَّ صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين ، قال : سأخبركم كما تجدونه مكتوباً عندكم : إنَّ أول أمره أنه غلام من الروم ، أُعْطِىَ مُلْكاً ، فسار حتى أتى ساحل البحر من أرض مصر ، فابتنى عندها مدينة يقال لها الإسكندرية .

وقال الهمذانىّ : ذو القرنين ينسب إليه التاريخ قبل الإسلام ، ومؤدّبه أرسطاطاليس الحكيم ، وكان مُلْكه الذى بلغ فيه أقصى المشرق والمغرب خمسة عشر عاما ، والإسكندرية لما بناها رخّمها بالرخام الأبيض جدُرها وأرضها ، فكان لباسهم فيها السواد من نصوع بياض الرخام ، وإذا كانت ليلة مقمرة يُدْخِل الخياط الخيط فى خَرْق الإبرة من بياض رخامها .

وقيل : إنها مكثت سبعين عامًا لا يدخلها أحد إلا وعلى بصره خرقة سوداء من بياض جِصّها ورُخامها ، ولم يحتج لها فى تلك المدة إلى سراج بالليل من ضيائها . وقيل : كانت ثلاث مدن يحيط بجميعها سور .